اقرأ

لبّيك ...

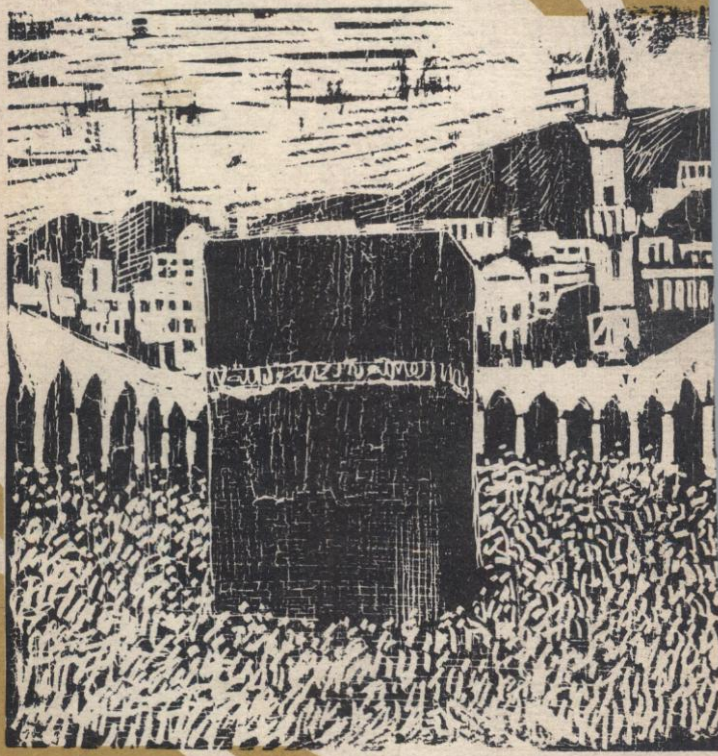

محمد كامل حسنة

دار المعارف بمصر

٥

الغلاف بريشة إيهاب شاكر

٥ قروش ج.ع.م.	١٠٠ مليم فى ليبيا	١٫٥٠ ديناراً فى الجزائر
٦٠ ق . ل	٧٥ فلساً فى العراق والأردن	١٥٠ فرنكاً فى المغرب
٧٥ ق . س	١٢٠ فلساً فى الكويت	١ ريالا سعودياً
٦٠ مليماً فى السودان	١٢٥ مليماً فى تونس	

لبّيك ...

محمد كامل حسنه

لبّيك ...

اقرأ ٢٦٨
دار المعارف بمصر

اقرأ ٢٦٨ – أبريل ١٩٦٥

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل--القاهرة ج. ع.

بسم الله الرحمن الرحيم

« وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ
يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ [٢٧] لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا
اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ
فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ [٢٨] ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ
وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ [٢٩] ذَلِكَ وَمَنْ
يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ
الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ
وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ [٣٠] »

« سورة الحج »

مقدمة

حين فرغ إبراهيم من بناء البيت العتيق[1] ، توجه ببصره إلى السماء
و يقول : يا رب ، قد فرغت . . .

فتلقى الوحى أن أذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر
تين من كل فج عميق . . .

قال — فى ضراعة وإشفاق : يا رب ، وما يبلغ صوتى !

قال : إنما عليك الأذان وعلىّ البلاغ . . .

وصدع الشيخ بأمر ربه ، وأرسل صوته الضعيف بالأذان لا يكاد
سمع رجع صداه . ولكن كلمة الله نفخت فى هذا الصوت الواهن ،
ذا به يبلغ من وراء الغيب مستقر الأرواح فى أصلاب الرجال وأرحام
نساء ، وإذا من بين هذه الأرواح من تضج بالهتاف :

— لبيك اللهم لبيك . . .

فليس حاج يحج من يومئذ إلى أن تقوم الساعة ، إلا من أجاب
عوة إبراهيم من وراء الغيب البعيد . . .

ذكرت هذه القصة وأنا أستمع إلى من يحدثنى فى التليفون :

— أنت مدعو لأداء فريضة الحج هذا العام . . .

قلت ، وأنا فى غمرة الدهشة والسرور :

— كيف ، ولم يبق على موعد الحج إلا بضعة أيام ؟ !

قال : نعم ، وإنك لرفيقى فى هذه الرحلة المباركة ، فخذ لها أهبتك
عاجلة .

---

(١) الكعبة .

قلت : إذن ، هى دعوة إبراهيم ، عرفت اليوم أن روحى قد استجابت لها من وراء الغيب البعيد . . .

* * *

وأخذت أعد العدة لهذه الرحلة المباركة . وشغلت نفسى با رجوع إلى كتب الفقه والحديث والتفسير ، أتحرى فيها أحكام الحج ، ولقيت فى ذلك كثيراً من الجهد وتعدد الأقوال والآراء ، وألفيت نفسى أزداد أمية كلما ازددت جرياً وراء هذه الأقوال والآراء . . .

وقلت فى نفسى :

— إن الحج ، وهو فريضة تقوم على التجرد والبساطة ، لا يمكن أن يكون على هذه الصورة المعقدة المتراكبة التى تصورها أقوال كثير من الفقهاء والشرّاح .

وإن كثيراً من هؤلاء وغيرهم قد وقع فى أوهام زادت الأمر تعقيداً وبلبلة . وقد نبه الإمام ابن قيم الجوزيه إلى ما وقع فيه بعض العلماء والفقهاء من هذه الأوهام . . .

* * *

وليس أدل على سماحة الإسلام ويسره ، مع التزام الأصول العامة ، من قول عبد الله بن عمر فى أعمال الحج يوم عرفة ، عن الرسول — صلى الله عليه وسلم :

— ما رأيته سئل — صلى الله عليه وسلم — يومئذ عن شىء إلا قال : افعلوا ولا حرج . . .

وقول عبد الله بن عباس :

— إنه قيل له — صلى الله عليه وسلم — فى الذبح والحلق والرمى والتقديم والتأخير ، قال : لا حرج .

وقول أسامة بن شريك :

— خرجت مع النبي صلى الله عليه وسلم حاجاً ، وكان الناس يأتونه فمن قائل : يا رسول الله ، سعيت قبل أن أطوف ، أو أخرت شيئاً وقدمت . فكان يقول : لا حرج ، لا حرج ؛ إلا على رجل اعترض عِرض رجل مسلم وهو ظالم ، فذلك الذى حرجَ وهلك[١] .

وأديت فريضة الحج مستلهماً روح التجرد والبساطة ، متحرياً ما صح عن الرسول — صلى الله عليه وسلم — من أفعال وأقوال . ثم أديت العمرة بعد ذلك عدة مرات ، وتجمعت لدىّ خلال ذلك من التجارب العلمية والعملية . والدراسات التاريخية والأدبية . ومن التجاوب الروحى . . حصيلة أرجو أن أجلوها فى هذا الكتاب . هدية لضيف الله من حجاج بيته الحرام . وإلى الذين يشاركونهم بأرواحهم وقلوبهم هذه الرحلة المباركة ، ويلتقون معهم — على البعد — يوم العيد الأكبر مهللين مكبرين . . .

محمد كامل حته

---

(١) زاد المعاد فى هدى خير العباد صفحة ٢٢٨ من الجزء الأول .

من حديث الرسول

قال — صلى الله عليه وسلم :
« بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، وحج البيت من استطاع إليه سبيلا » .

أفضل الأعمال

عن أبى هريرة — رضى الله عنه قال :
— سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أى الأعمال أفضل ؟
قال : إيمان بالله ورسوله .
قيل : ثم ماذا ؟
قال : ثم جهاد فى سبيل الله .
قيل : ثم ماذا ؟
قال : ثم حج مبرور .

جهاد الضعيف والكبير والمرأة

عن الحسن بن على رضى الله عنهما : أن رجلا جاء إلى النبى — صلى الله عليه وسلم — فقال : إنى جبان ، وإنى ضعيف .
فقال : هلم إلى جهاد لا شوكة فيه . . . الحج .
وعن عائشة رضى عنها أنها قالت :
— قلت يا رسول الله ، نرى الجهاد أفضل العمل ، أفلا نجاهد ؟

قال : لكنّ أفضل الجهاد . . . حج مبرور .
وعنها رضى الله عنها أنها قالت :
— قلت يا رسول الله ، ألا نغزو ونجاهد معكم ؟
قال : لكن أحسن الجهاد وأجمله . . . الحج ، حج مبرور .

الحج يهدم ما قبله

عن عمرو بن العاص قال :
— لما جعل الله الإسلام فى قلبى ، أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت :
— ابسط يدك فلأبايعك .
قال : فبسط ، فقبضت يدى !
فقال : مالك يا عمرو ؟
قلت : أشترط . . .
قال : تشترط ماذا ؟
قلت : أن يُغفر لى . . .
قال : أما علمت أن الإسلام يهدم ما قبله ، وأن الهجرة تهدم ما قبلها ، وأن الحج يهدم ما قبله !

وينفى الفقر والذنوب

عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
— تابعوا بين الحج والعمرة ، فإنهما ينفيان الفقر والذنوب ، كما ينفى الكير خبث الحديد والذهب والفضة ، وليس للحجة المبرورة ثواب إلا الجنة .

الحجاج وفد الله

عن أبي هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
ـ الحجاج ، والعُمّار ، وفد الله . إن دعوه أجابهم . وإن استغفروه غفر لهم .

الحج جزاؤه الجنة

عن أبي هريرة قال :
ـ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما . والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة .

الحجاج في ضمان الله

عن جابر رضي الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
ـ هذا البيت دعامة الإسلام . فمن خرج يؤم هذا البيت من حاج أو معتمر ، كان مضموناً على الله . إن قبضه أن يدخله الجنة . وإن رده . . رده بأجر وغنيمة .

الحجة المفروضة

عن أبي هريرة قال :
ـ خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا أيها الناس ، إن الله كتب عليكم الحج فحجوا .
فقال رجل : أكل عام يا رسول الله ؟
فسكت . . .

قال الرجل : أكل عام يا رسول الله ؟

فسكت . . .

قال الرجل : أكل عام يا رسول الله ؟

قال صلى الله عليه وسلم :

— لو قلت نعم ، لوجبت ، ولما استطعتم .

ثم قال : ذرونى ما تركتكم ؛ فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم ، فإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم . وإذا نهيتكم عن شيء فدعوه .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

— خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : يا أيها الناس ، كتب عليكم الحج .

فقام الأقرع بن حابس فقال :

— أفى كل عام يا رسول الله ؟

فقال : لو قلتها لوجبت ، ولو وجبت لم تعملوا بها ، ولم تستطيعوا . الحج مرة ، فمن زاد فهو تطوع .

من أراد فليعجل

عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

— من أراد الحج فليعجّل ؛ فإنه قد يمرض المريض ، وتضل الراحلة ، وتكون الحاجة .

الحج عن الوالدين

عن ابن عباس رضى الله عنهما ، أن امرأة من جهينة جاءت إلى النبى صلى الله عليه وسلم فقالت :

ـ إن أمى نذرت أن تحج ، ولم تحج حتى ماتت ، أفأحج عنها ؟

قال : نعم ، حجى عنها . أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قَاضِيتَهُ (١) ؟ اقضوا الله فالله أحق بالوفاء .

وعن الفضل بن عباس ، أن امرأة من خثعم قالت :

ـ يا رسول الله : إن فريضة الله على عباده فى الحج ، أدركت أبى شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يثبت على الراحلة ، أفأحج عنه ؟

قال : نعم .

لا اقتراض للحج

عن عبد الله بن أبى أوفى قال :

ـ سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل لم يحج ، أيستقرض للحج ؟

قال : لا .

الحج عن الغير

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :

ـ إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع رجلا يقول : لبيك عن شُبْرُمَة . فقال :

---

(١) أى تقومين بسداد هذا الدين .

— أحججت عن نفسك ؟
قال : لا .
قال : فحج عن نفسك ثم حج عن شبرمة .

الحج من المال الحرام

عن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :
— إذا خرج الحاج حاجاً بنفقة طيبة ، ووضع رجله فى الغرز (١) فنادى : لبيك اللهم لبيك ، ناداه مناد من السماء : لبيك وسعديك ، زادك حلال ، وراحلتك حلال ، وحجك مبرور غير مأزور (٢) .
وإذا خرج بالنفقة الخبيثة فوضع رجله فى الغرز فنادى : لبيك . . . ناداه مناد من السماء : لا لبيك ولا سعديك ، زادك حرام . ونفقتك حرام ، وحجك مأزور غير مأجور .

التكسب والكراء

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال :
— إن الناس فى أول الحج كانوا يتبايعون بمنى وعرفة وسوق ذى المجاز ومواسم الحج ، فخافوا البيع وهم حرُم . فأنزل الله تعالى : « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلاً مِنْ رَبِّكُمْ » فأمروا أن يتّجروا إذا أفاضوا من عرفات.
وعن أمامة التيمى أنه قال لابن عمر رضى الله عنهما :
— إنى رجل أكرى (٣) فى هذا الوجه . وإن ناساً يقولون لى :

---

(١) ركاب الرحل .
(٢) من الوزر أى الإثم .
(٣) أؤجر دابتى فى هذه الجهة .

إنه ليس لك حج .

فقال ابن عمر : أليس تحرم ، وتلبى ، وتطوف بالبيت ، وتفيض من عرفات ، وترمى الجمار ؟

قال : قلت بلى .

قال : فإن لك حجا . جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فسأله عن مثل ما سألتنى ، فسكت عنه حتى نزلت هذه الآية . . . فأرسل إليه وقرأ عليه هذه الآية ، وقال : لك حج .

كثر خير الله وطاب

عن أنس رضى الله عنه قال :

ــ وقف النبى صلى الله عليه وسلم (بعرفات) وقد كادت الشمس أن تئوب ، فقال : يا بلال ، أنصت لى الناس .

فقام بلال فقال : أنصتوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

فأنصت الناس .

فقال صلى الله عليه وسلم :

ــ معشر الناس : أتانى جبريل عليه السلام آنفاً ، فأقرأنى السلام ، وقال : إن الله عز وجل غفر لأهل عرفات ، وأهل المشعر الحرام ، وضمن عنهم التبعات . . .

فقام عمر بن الخطاب فقال :

ــ يا رسول الله : هذا لنا خاصة ؟

فقال : هذا لكم ولمن أتى من بعدكم إلى يوم القيامة . . .

فقال عمر رضى الله عنه :

ــ كثر خير الله وطاب !

كيف حج الرسول ؟

قال جابر بن عبد الله رضى الله عنه :

— إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مكث تسع سنين لم يحج ، ثم أذن فى الناس فى العاشرة : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم حاج . . .

فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتمّ برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويعمل مثل عمله .

فخرجنا معه حتى أتينا ذا الحليفة . . .

فصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المسجد ، ثم ركب « القصواء » (١) حتى إذا استوت به ناقته على البيداء ، نظرت إلى مد بصرى بين يديه من راكب وماش ، وعن يمينه مثل ذلك ، وعن يساره مثل ذلك ، ومن خلفه مثل ذلك . ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا ، وعليه ينزل القرآن ، وهو يعرف تأويله ، وما عمل به من شىء عملنا به .

فأهلّ بالتوحيد : لبيك اللهم لبيك ، لبيك لاشريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لاشريك لك . . .

قال جابر : لسنا ننوى إلا الحج ، لسنا نعرف العمرة . حتى إذا أتينا البيت معه استلم الركن (٢) ، فَرَمَلَ (٣) ثلاثا ، ومشى أربعا . ثم نفذ إلى مقام إبراهيم عليه السلام ، فقرأ : « وَاتَّخِذُوا مِنْ مقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » .

---

(١) اسم ناقة الرسول .

(٢) ركن الكعبة الذى به الحجر الأسود .

(٣) هرول .

فجعل المقام بينه وبين البيت .

فكان يقرأ فى الركعتين : « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ » و « قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ » ثم رجع إلى الركن فاستلمه ، ثم خرج من الباب إلى الصفا .

فلما دنا من الصفا قرأ : « إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ (١) مِنْ شَعَائِرِ اللهِ » أبدأ بما بدأ الله به . فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت ، فاستقبل القبلة فوحد الله وكبره ، وقال :

ــ لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير . لا إله إلا الله وحده ، أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

ثم دعا بين ذلك . قال مثل هذا ثلاث مرات .

ثم نزل إلى المروة ، حتى إذا انصبت قدماه فى بطن الوادى سعى ، حتى إذا صعدنا مشى . حتى أتى المروة ففعل على المروة كما فعل على الصفا . . . حتى إذا كان آخر طوافه على المروة ، فقال :

ــ لو أنى استقبلت من أمرى ما استدبرت لم أسق الهَدْى ، وجعلتها عمرة . فمن كان منكم ليس معه هدى فليحل ، وليجعلها عمرة .

فقام سراقة بن مالك فقال :

ــ يا رسول الله ، ألعامنا هذا أم لأبد ؟

فشبك رسول الله صلى الله عليه وسلم أصابعه ، واحدة فى الأخرى ، وقال :

ــ دخلت العمرة فى الحج (مرتين) لا . . بل لأبد أبد .

---

(١) ربوتان بالقرب من الكعبة يكون بينهما السعى .

وقدم على من اليمن ببُدْن (١) النبي صلى الله عليه وسلم . فوجد فاطمة رضى الله عنها ممن حل ، : ولَبست ثياباً صبيغا ، واكتحلت . فأنكر ذلك عليها فقالت : أن إبى أمرنى بهذا .

قال : فحل (٢) الناس كلهم وقصروا (٣) ، إلا النبى صلى الله عليه وسلم ، ومن كان معه هدى .

* * *

فلما كان يوم التروية (الثامن من ذى الحجة) توجهوا إلى منى فأهلوا بالحج . وركب رسول الله صلى الله عليه وسلم فصلى بها الظهر والعصر والمغرب والعشاء والفجر . ثم مكث قليلا حتى طلعت الشمس ، وأمر بقبة من شعر تضرب له بنمرة (٤) .

. . . فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى عرفة ، فوجد القبة قد ضربت له بنمرة فنزل بها . حتى إذا زاغت الشمس أمر بالقصواء فرُحِّلَتْ (٥) له . فأتى بطن الوادى ، فخطب الناس وقال :

— إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم ، كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا . ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع (٦) . ودماء الجاهلية موضوعة . وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة ابن الحارث ، كان مسترضعاً فى بنى سعد فقتلته هذيل . وربا الجاهلية موضوع ، وأول ربا أضع ربانا . . ربا عباس بن عبد المطلب ، فإنه موضوع كله .

أما بعد ، أيها الناس ! فإن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه بدأ . ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما

---

(١) إبل .
(٢) حلوا إحرامهم .
(٣) قصوا شعر الرأس .
(٤) مكان شرقى عرفات .
(٥) وضع عليها رحلها وأعدت للركوب .
(٦) مهدر .

تحقرون(١) من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم .

أيها الناس : إنما النسيء(٢) زيادة فى الكفر يضَل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاماً ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ويحرّموا ما أحل الله . وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض . وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً منها أربعة حُرُم ، ثلاثة متوالية ورجب مفرد الذى بين جمادى وشعبان .

واتقوا الله فى النساء ، فإنكم أخذتموهن بأمان الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، ولكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف .

وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده ، إن اعتصمتم به : كتاب الله . وأنتم تسألون عنى ، فما أنتم قائلون ؟

قالوا : نشهد أنك قد بلغت . وأديت . ونصحت . . .

فقال وهو يرفع إصبعه السبابة إلى السماء ويردها مشيراً إلى الناس :

ــ اللهم اشهد . اللهم اشهد . اللهم اشهد . . .

ثم أذن ، ثم أقام فصلى الظهر . ثم أقام فصلى العصر . ولم يصل بينهما شيئاً .

ثم ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى الموقف . فجعل بطن ناقته القصواء إلى الصخرات ، وجعل حبل المشاة بين يديه ، واستقبل القبلة وظل يدعو حتى غربت الشمس .

عن على رضى الله عنه قال :

ــ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن أكثر دعاء من كان قبلى

---

(١) تستصغرون .

(٢) النسيء : تأخير حرمة الشهر إلى شهر آخر ، فقد كان المشركون إذا هل شهر حرام وهم محاربون استمروا فى حربهم وأبدلوا أيامه فى شهر آخر .

من الأنبياء ، ودعائى يوم عرفة أن أقول :

— لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير .

اللهم اجعل فى بصرى نوراً ، وفى سمعى نورا ، وفى قلبى نوراً .

اللهم اشرح لى صدرى ، ويسر لى أمرى .

اللهم أعوذ بك من وسواس الصدر ، وشتات الأمر ، وشر فتنة القبر ، وشر ما يلج فى الليل ، وشر ما يلج فى النهار ، وشر ما تهب به الرياح ، وشر بوائق(١) الدهر .

* * *

وأردف رسول الله صلى الله عليه وسلم أسامة خلفه ، ودفع من عرفات إلى مزدلفة ، وكان يقول :

— أيها الناس : السكينة ، السكينة . . .

حتى أتى مزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ، ولم يسبح بينهما شيئاً .

ثم اضطجع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى طلع الفجر ، وصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة .

ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام ، فاستقبل القبلة فدعا الله وكبره وهلله ووحده . فلم يزل واقفاً حتى أسفر(٢) جداً .

فدفع قبل أن تطلع الشمس ، وأردف(٣) الفضل بن عباس ، وكان رجلا حسن الشعر أبيض وسيما ، فلما دفع رسول الله صلى الله عليه وسلم مرت به ظعن يجرين . . فطفق الفضل ينظر إليهن ، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده على وجه الفضل فحول الفضل وجهه إلى الشق

---

(١) مهلكات . (٢) أسفر الصبح : أضاء . (٣) أركبه خلفه .

الآخر ينظر ، فحول رسول الله صلى الله عليه وسلم يده من الشق الآخر على وجه الفضل ، فصرف وجهه من الشق الآخر ينظر .

حتى أتى « بطن محسر »(١) فحرّك قليلا ، ثم سلك الطريق الوسطى التى تخرج على الجمرة الكبرى ، حتى أتى الجمرة التى عند الشجرة فرماها بسبع حصيات ، يكبر مع كل حصاة منها مثل حصى الخذف . رمى فى بطن الوادى . ثم انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثاً وستين بيده .

فلما أكمل رسول الله صلى الله عليه وسلم نحره ، استدعى بالحلاق وهو معمر بن عبد الله ، وقال له وهو قائم على رأسه بالموسى :

— يا معمر ، أمكنك رسول الله من شحمة أذنه وفى يدك الموسى . . .

قال معمر : أما والله يا رسول الله إن ذلك لمن نعمة الله علىّ .

قال : أجل .

وحلق للرسول شعر رأسه ، وحلق كثيرون من الصحابة ، وقصر بعضهم . وقد دعا — صلى الله عليه وسلم — للمحلقين بالمغفرة ثلاثاً وللمقصرين مرة .

* * *

ثم ركب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأفاض(٢) إلى البيت . وبعد أن طاف بالبيت طواف الإفاضة شرب من ماء زمزم ، وصلى الظهر . ثم رجع إلى منى فبات بها . فلما أصبح انتظر زوال الشمس ، فلما زالت مشى من رحله إلى الجمار ولم يركب ، فبدأ بالجمرة الأولى التى تلى مسجد الخيف فرماها بسبع حصيات واحدة بعد واحدة ، يقول مع كل حصاة : الله أكبر . ثم يقدم على الجمرة فقام مستقبل القبلة ،

---

(١) مكان بين منى ومزدلفة ، كان فيه هلاك أصحاب الفيل ، ولهذا أسرع الرسول وهو يجتازه .

(٢) اندفع ؛ نزل .

ثم رفع يديه ودعا دعاء طويلا . . .

ثم أتى إلى الجمرة الوسطى فرماها كذلك . ثم انحدر ذا اليسار مما يلي الوادى فوقف مستقبل القبلة رافعاً يديه يدعو ، قريباً من وقوفه الأول

ثم أتى الجمرة الثالثة ، وهى جمرة العقبة . فاستبطن الوادى[٢] واستعرض الجمرة[١] ، فجعل البيت عن يساره ومنى عن يمينه . فرماها بسبع حصيات كذلك .

فلما أكمل الرمى رجع من فوره .

وخطب صلى الله عليه وسلم الناس بمنى خطبتين ، إحداهما يوم المنحر والأخرى فى اليوم التالى وهو أوسط أيام التشريق .

قالت سرى بنت نبهان :

— سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : أتدرون أى يوم هذا ؟

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : هذا وسط أيام التشريق .

— هل تدرون أى بلد هذا ؟

قالوا : الله ورسوله أعلم .

قال : هذا المشعر الحرام . ثم قال :

— إنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد هذا . . .

ولما أكمل — صلى الله عليه وسلم — الرمى فى أيام التشريق الثلاثة ، أفاض بعد الظهر إلى المحصب ، فصلى الظهر والعصر والمغرب والعشاء ، ورقد رقدة ثم نهض إلى مكة فطاف للوداع ليلا سحراً ، ونادى بالرحيل فى أصحابه فارتحل الناس .

---

(١) وقف ببطن الوادى . (٢) استقبلها .

(٣) أيام التشريق هى يوم النحر (عيد الاضحى) واليومان الثانى والثالث .

من فقه المناسك

الحج هو قصد مكة المكرمة لأداء عبادة الطواف بالكعبة المشرفة بيت الله الحرام ، والسعى بين الصفا والمروة ، والوقوف بعرفة ، وأداء المناسك الأخرى عند المشعر الحرام ، ورمى الجمار والنحر . وطواف الإفاضة وطواف الوداع . . .

قال صلى الله عليه وسلم :

ـ كونوا على مشاعركم ، فإنكم على إرث من إرث إبراهيم .

وقال : إنما جعل الطواف بالبيت ، والسعى بين الصفا والمروة ، ورمى الجمار ، لإقامة ذكر الله عز وجل .

وقد فرض الحج سنة ست بعد الهجرة . حيث زل قوله تعالى : « وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ ، فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ (١) فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْىِ (٢) . وَلاَ تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْىُ مَحِلَّهُ (٣) . فَمَنْ كَانَ مِنْكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ (٤) . فإذا أَمِنْتُمْ فَمَنْ تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ

---

(١) أحصرتم : منعتم بسبب عدو أو مرض .
(٢) الهدى : مايذبح فى الحج من الإبل أو البقر أو الغنم .
(٣) محله : مكان النحر . (٤) نسك : ذبيحة .

الهَدى . فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِى الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ . ذَلِكَ لِمَنْ لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِى الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ، وَاتقوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَن اللهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ [١٩٦] اَلْحَجُ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ(١) وَلا فُسُوقَ(٢) وَلَا جِدَالَ فِى الْحَجِّ ، وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللهُ ، وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُولِى الْأَلْبَابِ [١٩٧] لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلا مِنْ رَبِّكُمْ(٣) ، فَإِذَا أَفَضتم(٤) مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُمْ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الضالينَ . [١٩٨] ثُم أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ النَّاسُ(٥) وَاسْتَغْفِرُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ [١٩٩] ، فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا ، فَمِنَ النَّاسِ مَنْ

(١) الرفث : مباشرة النساء ، أو فحش القول .
(٢) الفسوق : الخروج على حدود الشريعة .
(٣) أباحت هذه الآية التجارة فى موسم الحج .
(٤) أفضتم : نزلتم .
(٥) كانت قريش تفيض من المزدلفة ترفعا عن سائر الناس ، فنزلت الآية تأمرهم بالإفاضة من عرفات .

يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا وَمَالَهُ فِى الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ [٢٠٠] وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ [٢٠١] أُولَئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ [٢٠٢] وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِى أَيَّامٍ مَّعْدُودَاتٍ ، فَمَنْ تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ ، وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى ، وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . [٢٠٣] » سورة البقرة

ويجب أداء الحج إذا توافرت خمسة شروط : الإسلام ، والبلوغ ، والعقل ، والحرية والاستطاعة .

وأول أعمال الحج الإحرام . وهو نية الحج أو العمرة ، أو هما معاً . ولا يشترط التلفظ بذلك فإن النية محلها القلب .

ومن سنة الإحرام : الاغتسال ، والتطيب ، والتجرد من الثياب المخيطة ولبس إزار ورداء ، وصلاة ركعتين بنية الإحرام .

والإحرام ثلاثة أنواع :

١ ــ القران : وهو أن يحرم بالحج والعمرة معاً ، فيؤدى العمرة والحج لا يتحلل من إحرامه قبل أن يفرغ منهما جميعاً .

٢ ــ التمتع : وهو أن يحرم بالعمرة فى أشهر الحج ، فيدخل مكة فيطوف بالبيت ويسعى بين الصفا والمروة ، ثم يتحلل من إحرامه . حتى إذا كان يوم التروية عاد فأحرم من مكة بالحج .

٣ ــ الإفراد : وهو الإحرام بالحج وحده .

ما يباح للمحرم

الاغتسال :

عن ابن عباس رضى الله عنهما . أنه دخل حمام الجحفة وهو محرم . قيل له :

— أتدخل الحمام وأنت محرم ؟

فقال : إن الله ما يعبأ بأوساخنا شيئاً .

وعن جابر رضى الله عنه قال : يغتسل المحرم ، ويغسل ثوبه .

● لبس التبان :

عن عائشة رضى الله عنها أنها كانت لاترى بالتبان(٢) بأساً . وقال الحافظ : هذا رأى رأته عائشة . . .

● نقض الشعر وامتشاطه :

روى مسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم أمر عائشة فقال :

— انقضى رأسك وامتشطى .

وقال النووى : نقض الشعر والامتشاط جائزان فى الإحرام بحيث لا ينتف شعراً .

● تغطية الوجه :

كان عثمان بن عفان ، وزيد بن ثابت ، ومروان بن الحكم . . . يخمرون وجوههم وهم محرمون .

---

(١) التبان : سروال قصير .

● لبس الخفين للمرأة :

عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان قد رخص للنساء فى الخفين .

● تغطية الرأس عن نسيان :

لا شىء على من غطى رأسه ناسياً . أو لبس قميصه ناسياً — عند الشافعى . وعليه الفدية عند أبى حنيفة .

● الحجامة ، ونزع الضرس :

ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم احتجم وهو محرم وسط رأسه .

وقال مالك : لا بأس للمحرم أن يفقأ الدمل ، ويربط الجرح ، ويقطع العرق إذا احتاج .

وقال ابن عباس : المحرم ينزع ضرسه ، ويفقأ القرحة .

● حك الرأس والجسد :

عن عائشة أنها سئلت عن المحرم يحك جسده ؟

قالت : نعم .

● النظر فى المرآة ، وشم الريحان :

عن ابن عباس قال : المحرم يشم الريحان ، وينظر فى المرآة ، ويتداوى بأكل الزيت والسمن .

● شد الهميان ، ولبس الخاتم :

قال ابن عباس : لا بأس بالهميان[1] والخاتم للمحرم .

● الاكتحال :

---

(١) الهميان : هو مايشد على الوسط لحفظ النقود .

قال ابن عباس : يكتحل المحرم بأى كحل إذا رمد ، ما لم يكتحل بطيب ، ومن غير رمد .

● الاستظلال :

قال عبد الله بن عامر : خرجت مع عمر رضى الله عنه ، فكان يطرح النطع على الشجرة فيستظل به وهو محرم .

وعن أم الحصين رضى الله عنها قالت :

— حججت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حجة الوداع ، فرأيت أسامة بن زيد وبلالا . وأحدهما آخذ بخطام ناقة النبى صلى الله تعالى عليه وسلم ، والآخر رافع ثوبه يستره من الحر ، حتى رمى جمرة العقبة .

● قتل الحشرات المؤذية :

عن عائشة رضى الله عنها . أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

— خمس من الدواب كلهن فاسق يقتلن فى الحرم : الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور .

محظورات الإحرام

● الرفث : الجماع ودواعيه كالتقبيل واللمس لشهوة . . .

● الفسوق : اقتراف المعاصى .

● الجدال : مخاصمة الرفقاء وغيرهم . . .

قال تعالى : « فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِى الْحَجِّ » .

وعن أبى هريرة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال :

— من حج ولم يرفث ولم يفسق ، رجع من ذنوبه كيوم ولدته أمه

● لبس المخيط للرجل :

عن ابن عمر رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :

ـ لا يلبس المحرم القميص ، ولا العمامة ، ولا البرنس ، ولا السراويل ، ولا ثوباً مسه ورس (١) ولا زعفران ، ولا الخفين إلا ألا يجد نعلين فليقطعهما حتى يكونا أسفل من الكعبين .

ويجوز لمن لم يجد الإزار والرداء أو النعلين أن يلبس ما يجد ؛ عن ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم خطب بعرفات وقال :

ـ إذا لم يجد المسلم إزاراً فليلبس السراويل ، وإذا لم يجد النعلين فليلبس الخفين . . .

● النقاب والقفازان للمرأة :

عن ابن عمر رضى الله عنهما قال :

ـ نهى النبي صلى الله عليه وسلم النساء فى إحرامهن عن القفازين والنقاب ، وما مس الورس والزعفران من الثياب . ولتلبس بعد ذلك ما أحبت من ألوان الثياب من معصفر ، أو خزّ ، أو حلى ، أوسراويل ، أو قميص ، أو خف .

ويجوز للمحرمة ستر الوجه إذا خافت الفتنة . . .

قالت عائشة :

ـ كان الركبان يمرون بنا ، ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم محرمات ، فإذا حاذوا بنا سدلت إحدانا جلبابها على وجهها . فإذا جاوزوا بنا كشفناه .

● عقد النكاح :

عن عثمان بن عفان رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

---

(١) الورس : نبت أصفر طيب الرائحة يصبغ به .

– لا ينكح المحرم ولا ينكح ، ولا يخطب .

● تقليم الأظافر وإزالة الشعر :

قال تعالى : « وَلاَ تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ » .

ويحرم قلم الظفر بلا عذر ، فإن انكسر فللمحرم إزالته بغير فدية . ويجوز إزالة الشعر إذا تأذى به المحرم ، وعليه فدية .

قال تعالى : « فَمَنْ كَانَ مِنْكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّنْ رَأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّنْ صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ »

● التطيب :

عن ابن عمر أن عمر رضى الله عنهما وجد ريح طيب من معاوية وهو محرم ، فقال له :

– ارجع فاغسله ؛ فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : الحاج الشَّعِثُ التَّفِلُ .

● التعرض للصيد :

يحرم صيد البر . ويجوز للمحرم صيد البحر . قال تعالى :

– « أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ ، وحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ الْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُماً ، واتَّقُوا اللهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ »(١)

(١) سورة المائدة ، الآية ٩٦ .

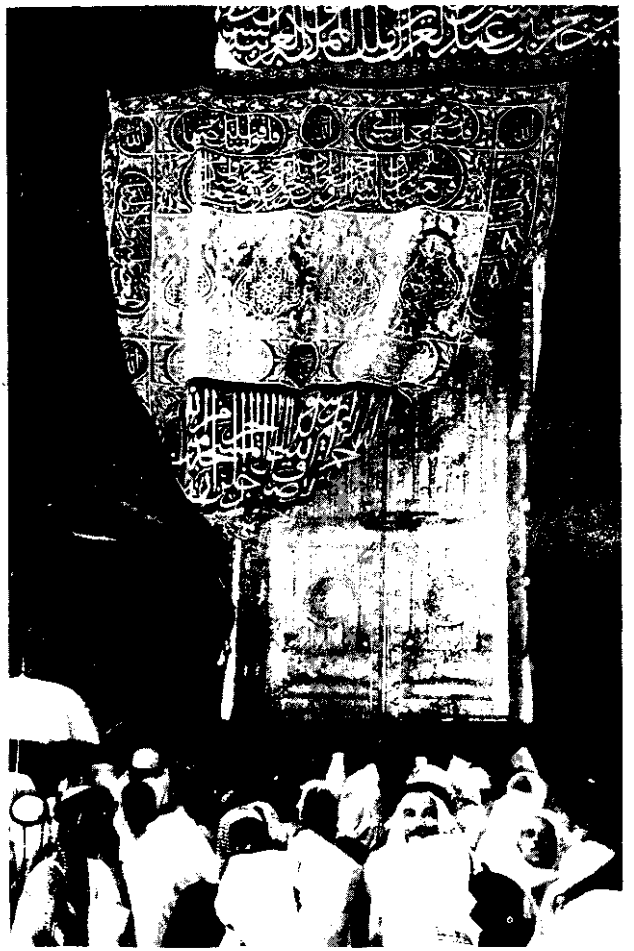

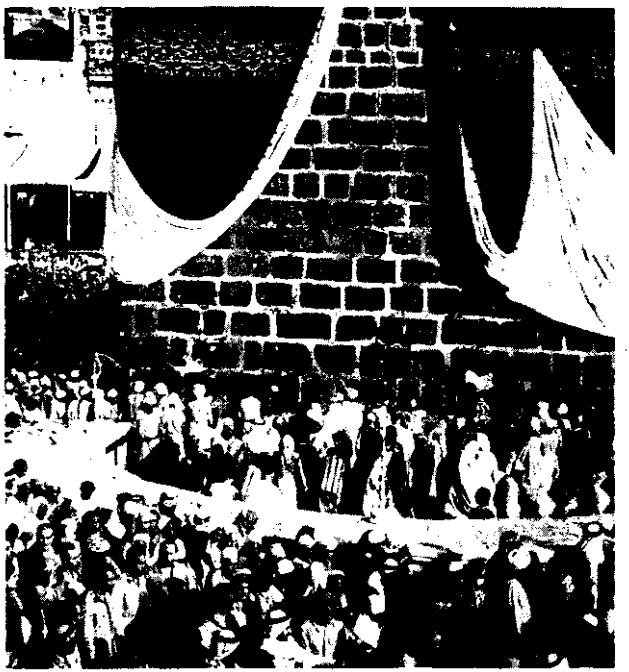

ويجوز للمحرم أن يأكل من لحم الصيد الذى لم يصده هو ، أو لم يصده أحد له . . .

عن جابر رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

— صيد البر لكم حلال وأنتم حرم ، ما لم تصيدوه أو يصد لكم .

فدية المحرم

لا يبطل الحج أو العمرة بارتكاب شيء من المحظورات إلا فى حالة واحدة ، هى الجماع . وفيما عدا ذلك تكون الفدية وهى واحدة من ثلاث :

— ذبح شاة .

— إطعام ستة مساكين ، كل مسكين نصف صاع .

— صيام ثلاثة أيام .

عن عبد الرحمن بن أبى ليلى ، عن كعب بن عجرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مر به زمن الحديبية فقال :

— قد آذاك هوام رأسك ؟

قال : نعم .

فقال النبى صلى الله عليه وسلم :

— احلق ، ثم اذبح شاة نسكاً . أو صم ثلاثة أيام . أو أطعم ثلاثة آصع من تمر على ستة مساكين .

وجزاء قتل الصيد : ذبح مثل ما قتل فى قيمته والتصدق بلحمه . أو التصدق بقيمة ثمنه طعاماً ، فيطعم كل مسكين مدا . أو الصيام أياماً بعدد المساكين الذين يستحقون الصدقة .

لبيك اللهم لبيك !

. . . واستيقظت مع الفجر أتأهب للرحلة المباركة . فاغتسلت ، واحتلقت ، وتطيبت . ثم أخذت لباس الإحرام ، ونويت العمرة ، وأديت الصلاة .

وودعت أهلى وولدى ، وقد طغت على مشاعرى أشواق أقوى من حرارة الوداع . . .

ثم غادرت منزلى بحلوان وأنا فى لباسى الأبيض غير المخيط ، ونعلى الملكشوف ، وفى عدتى الخفيفة الوافية ؛ وأنا أشبه ما أكون بالنافر إلى ميدان الجهاد ، وقد انطلقت فى إثرى الدعوات والزغاريد .

مواقيت الحج

وقد أحرمت بالمنزل لأنى كنت قد تهيأت للسفر بالطائرة ، والإحرام بها غير ميسور ؛ إذ يصعب على المسافر بها تحديد مكانها من « الميقات » وليس الأمر كذلك بالنسبة للمسافر بالبر أو البحر ، إذ يحرم هؤلاء كل عند ميقاته . وهذه المواقيت هى :

● ذو الحليفة — ميقات أهل المدينة . وهو موضع بينه وبين مكة ٤٥٠ كيلومترا .

الجحفة — ميقات أهل الشام ومصر . وقد ذهبت معالمها ، وأصبحت « رابغ » القريبة منها هى الميقات . وبين رابغ ومكة ٢٠٤ كيلومترات .

● قرن المنازل – ميقات أهل نجد . وهو جبل شرقى مكة يطل على عرفات ، وبينه وبين مكة ٩٤ كيلومتراً .

● يلملم – ميقات أهل اليمن . وهو جبل يقع جنوبى مكة ، وبينهما ٥٤ كيلو متراً .

● ذات عرق – ميقات أهل العراق . وهو موضع فى الشمال الشرقى من مكة ، وبينهما ٩٤ كيلومتراً .

وهذه المواقيت لأهل البلاد المذكورة ، ولمن مرّ بها . قال صلى الله عليه وسلم : « هن لهن ، ولمن أتى عليهن من غيرهن ؛ ممن أراد الحج أو العمرة » .

ومن كان بمكة وأراد الحج ، فميقاته منازل مكة . وإن أراد العمرة فميقاته « الحل » يخرج إليه ويحرم منه . والحل أدناه إلى مكة « التنعيم » وهو مكان يبدأعنده الحد الشمالى للحرم ، وبينه وبين مكة ٦ كيلومترات.

قال ابن حزم : ومن كان طريقه لا يمر بشىء من هذه المواقيت ، فليُحرم من حيث شاء . . .

وقد جعل الله ميقات أهل المدينة أبعد هذه المواقيت عن الحرم ، لتزيد رقعة الإحرام ، فيزداد أهلها استمتاعاً بمشاعر الإقبال على بيت الله الحرام ، ويزداد ثوابهم على قدرما ازداد من تحملهم مشاق الرحلة وقيود الإحرام.

وقال عبد الله بن عامر والى البصرة على عهد عثمان ، إن عمان – رضى الله عنه – كان فى « نيسابور » حين قال له أحد خاصته ، وقد امتدت الفتوحات الإسلامية فى عهده إلى أبعد الآفاق .

– يا أمير المؤمنين ، لم يفتح الله لأحد ما فتح عليك !

فقال : لا جرَمَ لأجعلن شكرى لله أن أخرج محرماً من موقفى هذا . . .

فهل كثير علىّ — وقد أكرمنى الله بدعوته هذه لحج بيته الحرام ، أن أقبل عليه محرماً من دارى بحلوان ؟ !

فى الطائرة

وأقلتنا الطائرة من مطار القاهرة ظهر يوم الأربعاء السابع من ذى الحجة ، وحين أخذت الطائرة مجراها فى الفضاء ، عكفت على كتاب الله أتلو من آياته ، وقد تملكنى شىء من الزهو أشبه ما يكون بالعبادة ؛ إذ تمثلتنى فى مقامى هذا ملكاً يترنم بالتسابيح فى معارجه بين الأرض والسماء !

وما هى إلا ساعات ثلاث ، حتى هبطت بنا الطائرة فى مطار جدة ، ونحن نردد جميعاً الهتاف فى شوق وإيمان :

— لبيك اللهم لبيك !

وكم تمنيت لو أمكنتنى فسحة الوقت من أن يكون سفرى إلى جدة بالباخرة ؛ حتى يكون استمتاعى بأشواق الرحلة أشمل وأعمق . إن الأيام التى يقضيها الحاج فى الباخرة بين حل وإحرام ، تمثل مرحلة جميلة من مراحل أداء هذه الفريضة ، تستيقظ فيها مشاعره ، وتستبق خواطره مشوقة نحو البلد الحرام والبيت الحرام ، ومثوى الرسول عليه الصلاة والسلام .

وكما جعل الرسول — صلى الله عليه وسلم — ميقات أهل المدينة أبعد المواقيت عن الحرم ، ليزداد أهلها استمتاعاً بمشاعر الإقبال على بيت الله الحرام ؛ فإن السفر بالباخرة يعطى الحاج فرصة زمانية أطول مما تعطيه الطائرة للاستمتاع بهذه المشاعر الجميلة .

إن الباخرة منذ تغادر ميناء السويس باسم الله مجراها ومرساها ، حتى تبلغ ميناء جدة بعد نحو ٦٠ ساعة ؛ أشبه ما تكون بمحراب يمخر العباب . فما أحد من ركابها إلا وهو راكع أو ساجد أو مستغفر آناء الليل

وأطراف النهار ، أو مهل بالتلبية عند كل خطوة يخطوها أو عمل يأتيه : لبيك اللهم لبيك !

صور من الماضى

وتذكرت فى هذه النقلة الخاطفة التى اجتزنا فيها ما بين القاهرة وجدة فى ثلاث ساعات بالطائرة ، ما كان يعانيه الحجاج فى الماضى البعيد من طول الرحلة ومخاطر السفر ، حين كانت الوسائل بدائية والطريق محفوفاً بالمخاطر . ومع ذلك كله كان الحجاج من أقصى أقطار الأرض يؤمون البيت الحرام مستجيبين لدعوة إبراهيم ، هاتفين : لبيك اللهم لبيك !

ومنذ القرن الأول للهجرة كانت مصر هى طريق الحجاج من إفريقية والأندلس وجزر البحر الأبيض المتوسط ، والبلاد الإسلامية فى أوربا وآسيا . كانوا يحضرون من بلادهم براً وبحراً إلى مصر ، فيجتمعون بها قبل شهر رمضان ، ثم يسيرون منها إلى « قوص » بالبر أو البحر ، فيقطعون المسافة بينهما — ومقدارها ٦٤٠ كيلومتراً — فى نحو ٢٠ يوماً . وتبدأ القوافل من قوص سيرها مخترقة الصحراء الشرقية فى طريقها إلى « عيذاب » أو « القصير » على ساحل البحر الأحمر . وطول هذا الطريق ١٦٠ كيلومتراً ، تقطعه القوافل فى ١٥ يوماً .

وكانت كل من عيذاب والقصير ميناء لمصر على البحر الأحمر منذ قديم الزمان . والطريق إلى القصير يرجع إلى القرن الثانى عشر قبل الميلاد ، افتتحه رمسيس الثالث ، فكان طريقاً للتجارة بين مصر والهند وبلاد العرب . كما كانت القصير فى عهد البطالسة هى الميناء الوحيد الذى يصل التجارة بين البحر الأبيض والمحيط الهندى .

وكان الحجاج يقيمون فى عيذاب أو القصير نحو شهر ، انتظاراً

للسفن الشراعية التى تحملهم إلى جدة . وكان على كل حاج أن يدفع ضريبة مرور قدرها عشرة جنيهات لاثنين يحكمان هذه المنطقة : أحدهما مندوب عن شيخ قبائل البجة التى تسيطر على الصحراء الشرقية ، والآخر مندوب عن حاكم مصر . وكان هذان الحاكمان يقتسمان حصيلة هذه الضرائب مع أمير مكة ، إلى أن أبطل صلاح الدين عام ٥٩٠ هـ هذه الضريبة وغيرها من المكوس التى كانت تفرض على الحجاج . . .

ثم يستقل الحجاج من ميناء القصير أو عيذاب السفن الشراعية . وكانت سفناً صغيرة غير محكمة الصنع ، أغلب أشرعتها من الحصير ... وكان أصحابها يحملونها أكثر مما تطيق من الحجاج طمعاً فى زيادة ما يحصلون عليه من أجر ، فيتعرض كثير من هذه السفن للغرق . وبعد ١٥ يوماً يقضيها الحجاج فى رحلتهم هذه المحفوفة بالمخاوف والأخطار ، يصلون إلى ميناء جدة وهم على حال أى حال !

وقد حج ابن جبير الأندلسى عام ٥٧٩ هـ فقطع المسافة بين القاهرة وجدة عن هذا الطريق فى نحو شهرين ونصف شهر . وسجل فى رحلته هذه ما عاناه فى البر والبحر من أهوال . . .

وأراد ابن بطوطة الحج عام ٧٢٥ هـ فسافر من القاهرة إلى عيذاب . فلم يجد هنالك سفينة تحمله إلى جدة ؛ فقد حدثت آنئذ موقعة بين الترك والبجة أحرقت فيها جميع السفن التى كانت فى الميناء . فعاد ابن بطوطة إلى القاهرة ، ومنها إلى الشام ، حيث سافر مع قوافل الحج الشامية فى السنة التالية !

وظل طريق القصير وعيذاب هو الطريق الوحيد للحجاج حتى عام ٦٤٥ هـ حين سافرت شجرة الدر مع قافلة الحجاج بالبر لأول مرة عن طريق « العقبة » . وازدادت أهمية هذا الطريق منذ عام ٦٦٠ هـ حين سيّر الظاهر بيبرس منه قافلة الحجاج . ومن ثمة بدأ طريق الحج يتحول

من البحر إلى البر عن هذا الطريق . وكانت المسافة بين القاهرة ومكة عن هذا الطريق تقطعها القوافل فى نحو ٥٠ يوماً . وكان بعض الحجاج يسافرون بالبحر عن طريق السويس إلى جدة ، فتبلغها المراكب الشراعية فى نحو ثلاثة أسابيع .

. . . فأين هذا كله مما صار إليه طريق الحج الآن ؟

رحلة ممتعة بالباخرة مدتها ٦٠ ساعة . . .

أو رحلة خاطفة بالطائرة لا تتجاوز ثلاث ساعات !

فى الأرض الطيبة

ها نحن أولاء نخطو خطواتنا الأولى على الأرض الطيبة وئيدة متهيبة . تلك الأرض التى كانت مسرحاً لأروع حوادث التاريخ ، وأخلد ملاحم الإنسانية . . .

هذه الأرض التى تروى ذراتها تاريخاً طويلا زاخراً بصور البطولة ، وألوان الكفاح والانتصار ، ومصارع الشهادة فى سبيل الحق والمثل الأعلى . وتتردد فى أجوائها أصداء بعيدة قريبة ، لتلك الانتفاضة الروحية القوية التى انشق عنها ضمير الوجود منذ أربعة عشر قرناً من الزمان ، فغيرت معالم التاريخ ، وقفزت بالإنسانية إلى أبعد الآفاق . . .

إن طوفاناً من المشاعر والأحاسيس يحتوينى ، ويملك على الروح والقلب والواعية . فإذا أنا أعيش فى جو تزدحم فيه صور التاريخ حية نابضة ، وتختلط فيه مشاعر التجرد والعبودية ، وأشواق التلبية والإقبال على الله .

إنها نقلة روحية بعيدة ، تفصل المرء عن حياته تلك التى كان يحياها وهو يصارع « الدوامة » التى تلف الحياة والأحياء ، وتقذف به

إلى حياة جديدة ، تنفخ فى روحه شحنة لا عهد له بها من المشاعر والأحاسيس . . .

إنه يستدبر تلك الحياة المضطربة الصاخبة ، بما فيها من أعباء وهموم ، وروابط وتقاليد ؛ وقد تجردت نفسه عن ذلك كله ، كما تجرد جسمه إلا عن لباس الإحرام . ويستقبل حياة أخرى تتلاشى فيها هذه المعالم ، وتتبدل الأقدار والموازين .

وقد يكون فى هذا التصوير كثير من الرمزية والغموض ؛ وإنه لكذلك تصوير لا يطيق مزيداً من الإبانة والإفصاح ؛ لأن الإحساس بتلك الصور المزدحمة الغلابة ، لا يستطيع أن يتبين حدود هذه الصور ودقائقها فى إحاطة ووضوح ، ولا أن يستوعب كل ما يتمثل فيها من ألوان وظلال . . .

وأخرجنى من هذا الاستغراق فى مطالع الحياة الجديدة ، وأنا أخطو خطواتى الأولى على الأرض الطيبة ، صوت الرائد وهو يقول :

— هلم إلى البلد الحرام . . .

إلى أول بيت وضع للناس مباركاً وهدى للعاملين . . .

« إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ [٩٦] . فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً . وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ [٩٧] » .

سورة آل عمران

إلى مكة

. . . وحملتنا السيارة إلى مكة بعد الغروب . وانطلقت بنا فى طريقها الممهد تطوى الأرض فى سرعة خاطفة ، ولكنها لم تكن مع ذلك أسبق من أشواقنا المتوثبة فى حرارة وانطلاق . . .

وعادت الصور المزدحمة الغلابة تستغرق مشاعرى من جديد ، وقد أطبق الظلام على الكون ، فلا تنفرج فيه إلا ومضات خاطفة ترسلها مصابيح السيارات فى انطلاقها السريع . وكنت أحس أن السيارة لا تنطلق بنا فى طريقها من جدة إلى مكة ، ولكنها توغل فى رحلة إلى أعماق التاريخ ، وأنها لا تطوى الأرض وإنما تطوى السنين والحقب والأجيال . . .

وحين بلغنا « الشميسى » وبينها وبين مكة ١٥ كيلومتراً — وقفت بنا السيارة عند مخفر للشرطة . وقد بدا على الطريق ما يشبه البوابة الكبيرة ، لا يمر منها راكب أو راجل إلا بعد أن يتعرف عليه الشرطة ثم يسمحوا له بالمرور .

إنه حد من حدود الحرم لا يتجاوزه إلا مسلم . وحدود الحرم تحيط بمكة من جميع جهاتها . وقد نصبت عليها أعلام مبنية فى خمس جهات :

- التنعيم — وتقع شمالى مكة وبينهما ٦ كيلومترات .
- أحناء — من جهة الجنوب . وبينها وبين مكة ١٢ كيلومتراً .
- الجعرانة — من جهة الشرق . وبينها وبين مكة ١٦ كيلومتراً .
- وادى نخلة — من جهة الشمال الشرقى ، بينه وبين مكة ١٤ كيلومتراً .
- الشميسى — وهى مكان الحديبية التى تمت عندها بيعة الرضوان . . .

بيعة الرضوان

وكانت قد انقضت ست سنوات منذ الهجرة ، والمسلمون فى المدينة يتحرقون شوقاً إلى زيارة الكعبة حاجين أو معتمرين ، ولكن قريشاً كانت تحول دون ذلك وتوصد فى وجوههم أبواب البلد الحرام فى الأشهر الحرم ، وتصدهم عن أداء مناسك الحج والاعتمار دون سائر العرب ، حتى يعودوا إلى ملتهم تلك ويشاركوهم عبادة الأصنام التى كانت تزخر بها الكعبة فى تلك الأيام . . .

ثم كانت رؤيا الرسول — صلى الله عليه وسلم — فقال لأصحابه :

— « لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ . مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ ، لَا تَخَافُونَ . . . »

وسار الرسول فى ألف وأربعمائة من المهاجرين والأنصار ، ومن لحق بهم من القبائل ممن ليسوا على دينه . وأحرم بالعمرة إيذاناً للناس ولقريش بأنه لا يريد قتالا وإنما خرج زائراً ومعظماً لبيت الله الحرام فى الشهر الحرام . . .

ولقى الرسول فى طريقه رجلا من بنى كعب فسأله عن أخبار قريش فقال :

— قد سمعت بمسيرتك فخرجوا وقد لبسوا جلود النمور ، ونزلوا بذى طوى يعاهدون الله لا تدخلها عليهم أبداً . . .

ونادى الرسول فى الناس :

— من رجل يخرج بنا على طريق غير طريقهم التى هم بها ؟

وارتاد رجل بهم طريقاً وعرة حتى وصلوا إلى الحديبية . فنزل بها الرسول وصحبه . وقال — صلى الله عليه وسلم — إيثاراً للسلم :

— لا تدعونى قريش اليوم إلى خطة يسألونى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها . . .

وأوفد إليهم عثمان بن عفان فأبلغهم رسالته . . .

قالوا : يا عثمان ، إن شئت أن تطوف بالبيت فطف .

قال : ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله . إنما جئنا لنزور البيت العتيق ، ولنعظم حرمته ، ولنؤدى فرض العبادة عنده وقد جئنا بالهدى معنا ، فإذا نحرناها رجعنا بسلام .

ولكن قريشاً لجت فى عنادها ، وأصرت على ألا يدخل محمد مكة هذا العام . . .

وطالت غيبة عثمان ، واشتد القلق عليه أن تكون قريش قد غدرت به فقتلته فى الشهر الحرام . . .

وعندئذ قال الرسول لأصحابه ، وقد وقف تحت شجرة فى الوادى :

— لا نبرح حتى نناجز القوم .

فتقدموا جميعاً يبايعونه على ألا يفروا حتى الموت !

إنها بيعة الرضوان التى نزل فيها قوله تعالى :

— « لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً [١٨] » .

. . . وإنهم لكذلك قد بايعوا وباعوا أرواحهم فى سبيل الله ، وإذا عثمان يعود إليهم ، فكأنما كانت غيبته تلك وما تركت فى نفوسهم

من مظنة الغدر به ، وإصرار قريش على القتال فى الشهر الحرام وصدهم عن البيت الحرام — امتحاناً لإيمانهم وصبرهم على الجهاد فى سبيل الله ؛ خرجوا منه بالرضا والرضوان .

وأوفدت قريش سهيل بن عمرو وقالوا له :

— ائت محمداً فصالحه ، ولا يكن فى صلحه إلا أن يرجع عنا عامه هذا . فوالله لا تحدثُ العرب عنا أنه دخلها علينا عنوة أبداً . . .

وكان سهيل يشتط فى شروط الصلح ، فيستجيب له الرسول ، فتضيق بذلك صدور المسلمين . . .

معاهدة الحديبية

وفى ذلك اليوم عقدت معاهدة الحديبية ، على وضع الحرب بين المسلمين وقريش عشر سنين . وأن يرجع محمد وأصحابه عن مكة عامهم ذاك ، على أن يعودوا إليها فى العام الذى يليه . وبذلك حقنت الدماء وتحقق السلام . . .

« وَهُوَ الَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً [٢٤] » .

وفى طريق العودة نزل قوله تعالى (١) :

— « إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً [١] لِيَغْفِرَ لَكَ اللهُ مَا

---

(١) هذه الآيات وما قبلها وما بعدها من سورة الفتح التى نزلت فى الطريق إلى المدينة بعد الانصراف من الحديبية .

تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطاً مُسْتَقِيماً [٢] وَيَنْصُرَكَ اللهُ نَصْراً عَزِيزاً [٣] » .

وقد تحقق الفتح المبين ، وتحققت الرؤيا التى رآها الرسول من قبل .

« لَقَدْ صَدَقَ اللهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ . مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لاَ تَخَافُونَ ، فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فَتْحاً قَرِيباً [٢٧] » .

فما انقضى على معاهدة الحديبية هذه عامان حتى نقضها أهل مكة . وكان المسلمون قد ازدادوا قوة ومنعة ، فتم فتح مكة ودخل الناس فى دين الله أفواجاً . . .

وظلت الشجرة التى تمت فى ظلها بيعة الرضوان إلى عهد خلافة عمر رضى الله عنه . وأوشك الناس أن يحيطوها بشىء من القداسة ، فأمر عمر بقطع الشجرة ، ويقوم الآن فى مكانها — على يسار الذاهب إلى مكة — مسجد البيعة ، أنشأه السلطان محمود خان عام ١٢٥٤ هـ ، ومكتوب على قبلته : « هذا مسجد بيعة الرضوان ، مأثرة من مآثر حبيب المنان ، الفقير إلى رحمة الرحمن ، السلطان محمود خان » .

فى المسجد الحرام

. . . واجتازت بنا السيارة حد الحرم عند الشميسى بالقرب من الحديبية . وغمرتنا نشوة قدسية ونحن ندخل حرم الله ومأمن أضيافه .

حتى إذا لاحت لنا من بعيد أضواء مكة وجبالها الشاهقة ، هتفنا من الأعماق :

— الله أكبر . . . لبيك اللهم لبيك !

ودخلنا مكة مكبرين مهللين ، وقصدت المسجد الحرام فدخلته من باب السلام وأنا أقول كما روى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه :

— أعوذ بالله العظيم ، وبوجهه الكريم ، وسلطانه القديم ، من الشيطان الرجيم .

واستقبلتنى الكعبة بأستارها السوداء تغمرها الأضواء ، فرفعت يدىّ فى هتاف ونشوة أقول :

— اللهم زد هذا البيت تشريفاً ، وتعظيما ، وتكريما ، ومهابة ، وبرًّا . وزد من حجه أو اعتمره تشريفاً ، وتعظيما ، وتكريما ، ومهابة ، وبرًّا . . .

نعم ، هذه الكعبة يكتحل بمرآها ناظرى ، وتنتشى روحى ، ويخبت قلبى ، وتخشع جوارحى . . .

هذا الرمز الخالد الذى يجمع حوله القلوب ، من عهد إبراهيم إلى أن تقوم الساعة ، رمز التوحيد والعبودية لله وحده . . .

هذه الكعبة بيت الله ، وقبلة المسلمين فى جميع أقطار الأرض حين يمثلون أمام الله فى الصلاة . . .

هذه الكعبة التى لا تخلو لحظة من لحظات الدهر ، إلا وحولها طائف أو راكع أو ساجد . . .

واجتذبتنى موجة الطواف التى لا تهدأ ولا تفتر ، فإذا بى ذرة متجردة هائمة فى ذلك الملأ الذى يضج بالتسبيح والدعاء . . .

وفى هذا المقام وحده ، يذل عصى الدمع ، فلا تملك إلا النشيج والبكاء . . .

ألست فى حرم الله ، وقد تجردت عن كل مظاهر الدنيا ، إلا من آثامك وخطاياك ؟

ألست فى مقامك هذا واقفاً بين يدى الله وحيداً فريداً ، قد تخليت عن الأهل والولد والجاه ، وقدمت إليه منقطع الصلة بالحياة والأحياء ، فى لباسك هذا الذى تغادر به الدنيا وأنت تستقبل الموت وتستدبر الحياة ؟

وفى هذا المقام وحده ، لا تخجل من أن تعترف بذنوبك وآثامك . بل إنك لتجد الراحة والسلام وأنت تذيب هذه الذنوب والآثام فى دموع التوبة والندم !

ألست واقفاً بباب الله الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، والذى وسعت رحمته كل شىء ؛ فأنت تلوذ بحماه ، وتستجديه الرحمة والغفران ؟

وفى هذا المقام وحده ، يجأر الإنسان بالدعاء لا يكاد يحس من حوله ولا يحس به من حوله . أليس قد تلاشى من إحساسه كل شىء فى الوجود ، إلا أنه عبد آبق تقطعت به الأسباب وتخلت عنه الأرباب ، فأقبل على مولاه تائباً منيباً بين يديه ؛ لأنه لا مهرب منه إلا إليه ؟ !

شعيرة الطواف

وبدأت الطواف تجاه الحجر الأسود مشيراً إليه وأنا أقول :

— بسم الله ، والله أكبر ، اللهم إيماناً بك ، وتصديقاً بكتابك ، ووفاء بعهدك ، واتباعاً لسنة نبيك صلى الله عليه وسلم .

وكنت أسرع فى الأشواط الثلاثة الأولى ، ثم أسير كالعادة فيما بقى من الأشواط . فإذا حاذيت الركن اليمانى فى الطواف قلت : « رَبَّنَا آتِنَا

فى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَ فِى الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّار » حتى أتممتهن سبعة أشواط . . .

وكان دعائى فى الطواف ما يحضرنى من مأثور الآيات والأحاديث ، وما تفيض به مشاعرى فى هذا المقام من ضراعة وابتهال . . .

وما كان أشد عجبى فيما بعد ، وأنا واقف أتأمل الكعبة ، أن أشهد بعض صبية المطوفين وهم يقودون جماعات الحجيج يلقنونهم من الأدعية ما لا يفقه أولئك الصبية معناه ، ولا يحسنون مبناه ، فيردد أولئك الحجيج ما يسمعون ترديداً ينبعث من الآذان لا من القلوب !

وهل فى مثل هذا المقام يحتاج المهاجر إلى الله ، المقبل عليه ، إلى من يقوده من أمثال هؤلاء الصبية وغيرهم ، كما يقود الصبى الراحلة ؟

وهل فى مثل هذا المقام الملهم بفيوض المشاعر ، الجياش بأروع المعانى وأبلغ الأحاسيس ، يحتاج المرء إلى من يترجم له مشاعره ، ويملى عليه ما يقول ؟

مهنة الطوافة

وقد نشأت مهنة « الطوافة » بمكة على عهد المماليك الجراكسة . إذ كانوا يجهلون اللغة العربية فهم فى حاجة إلى من يلقنهم المأثورات ويرشدهم إلى أداء المناسك .

وكان أول مطوف بمكة هو القاضى إبراهيم بن ظهيرة . وهو الذى قام بتطويف السلطان قايتباى حين أدى فريضة الحج عام ٨٨٤ هـ . ويدل ذلك على أن مهنة الطوافة بدأت فى طبقة القضاة . ثم تطورت فى العهد العثمانى فاشترك فيها بعض الأعيان . ثم صار لكل مطوف صبية يتولون تطويف من يتعهد أمرهم من الحجاج .

ووضع أمراء مكة أنظمة للطوافة ، وجعلوا لكل بلد أو مجموعة من
لاد الإسلامية مطوفاً خاصًّا ، ليكون هذا التخصص أدعى إلى توفير
حة الحجاج وتيسير أدائهم للشعائر ، بما يعرف المطوف من لغة هذا
لد وتقاليد أهله .

ونظام الطوافة الآن يشمل القيام بجميع شئون الحجاج ، من توفير
اكن الإقامة ، وتدبير وسائل الانتقال ، وكفالة الحجاج لدى الدوائر
لحكومية . وتلك واجبات من الضرورى أن يقوم بها المطوفون ، وأن يقوموا
ى جانب ذلك بإرشاد الحجاج إلى المشاعر ، وتعريفهم بالمواقف والآثار
ى تتصل بفريضة الحج وبتاريخ النبوة والإسلام . أما المهمة الأخرى . .
هى مهمة تلقين الحجاج مأثورات الشعائر والأدعية ، يرددونها وراءهم
لا وعى ولا اختيار ، لأنها لا تنبعث من قلوبهم وأفكارهم وإنما تلتقطها
لآذان فتجرى على الألسنة — فتلك مهمة إن كان لها ما يبررها فى عهد
مماليك الجراكسة ، فما أظن — وما ينبغى — أن تكون لها مبرراتها
لآن . .

المقام وزمزم

وكنت فى طوافى بالكعبة أسرع الخطى فى الأشواط الثلاثة الأولى ،
قد « اضطبعتُ » فأزحت عن كاهلى اليمنى لباس الإحرام فجعلته تحت
ضدى . لقد فعل الرسول — صلى الله عليه وسلم — ذلك فى عمرته الأولى
أمر به أصحابه ؛ لأن المشركين حين رأوا المسلمين فى الحديبية وقد أوهنتهم
حمى يثرب ، قالوا شامتين :

— قد أوهنتهم الحمى ، وإن محمداً وأصحابه لا يستطيعون أن يطوفوا
البيت من الهزال !

فأمر الرسول أصحابه أن « يرملوا » فى الأشواط الثلاثة الأولى ، وأ
يضطبعوا ؛ إظهاراً للنشاط والقوة . وقال :

— رحم الله امرأ أراهم اليوم من نفسه قوة . . .

فصارت سنة فى الطواف .

وبعد أن أتممت الشوط السابع ، اتجهت إلى مقام إبراهيم فصليت
عنده ركعتين . ومقام إبراهيم هذا هو الحجر الذى كان يقوم عليه الخليل
وهو يرفع القواعد من البيت . . .

« وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ
رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ [١٢٧] رَبَّنَا
وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ، وَأَرِنَا
مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ [١٢٨]
رَبَّنَا وابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ
الكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ . إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ
[١٢٩] »(١) .

وقد بلغ مقام إبراهيم من القداسة أن أقيمت عليه قبة وأصبح مزاراً
يظن بعض الحجاج أنه قبر الخليل . كما تبارى بعض السلاطين والولاة
فى تحليته بالذهب والفضة .

وما أظن الآيةِ التى تقول : « واتخذوا من مقام إبراهيم
مُصَلًّى » والآية التى تقول : « فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ »

(١) سورة البقرة .

نى هذا الحجر أو تخلع عليه شيئاً من القداسة، وإنما تعنى المكان الذى م فيه إبراهيم وهو يرفع القواعد من البيت وإسماعيل . . .

ثم اتجهت إلى زمزم فشربت من مائها المبارك ، وأنا أردد قول ن عباس :

— اللهم إنى أسألك علماً نافعاً ، ورزقاً واسعاً ، وشفاء من كل داء .

عن ابن عباس رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ال :

— ماء زمزم لما شرب له . إن شربته تستشفى شفاك الله ، وإن شربته شبعك أشبعك الله، وإن شربته لقطع ظمئك قطعه الله . وهى هزّمة[1] جبرائيل ، وسُقيا الله لإسماعيل .

وعن ابن مليكة قال : جاء رجل إلى ابن عباس فقال : من أين ئت ؟

قال : شربت من ماء زمزم .

قال ابن عباس : أشربت منها كما ينبغى ؟

قال : وكيف ذلك يا ابن عباس ؟

قال : إذا شربت منها فاستقبل القبلة ، واذكر الله ، وتنفس ثلاثاً ، تضلع[2] منها . فإذا فرغت فاحمد الله ؛ فإن رسول الله — صلى الله عليه وسلم قال :

— آية ما بيننا وبين المنافقين أنهم لا يتضلعون من زمزم .

وكانت زمزم قبل أن يقام عليها البناء القائم الآن ، تشهد ألواناً من

---

(١) هزمة : حفرة .

(٢) التضلع : الامتلاء حتى يبلغ الماء الأضلاع .

جهالات بعض الحجاج ، ونهافتهم على التبرك بمائها ، حتى إن أحدهم
كما يقول صاحب الرحلة الحجازية — ألقى بنفسه فى البئر ليموت شهيا
فى مائها المقدس !

وقد رأيت بعض الحجاج يأتون بقطع من القماش فيغمسونها فى م
زمزم ، ثم ينشرونها على حصباء الحرم حتى تجف . وسألت : ما ذاك
قيل : هذه أكفانهم يدخرونها ليوم الوفاة !

. . . وتركت زمزم إلى الملتزم ، وهو ما بين الركن وباب الكعبة
فألصقت صدرى ووجهى بالجدار رافعاً يدى أتعلق بأستار الكعبة
وأنا أجأر بالدعاء وأنشج بالبكاء ؛ إنه موقف للضراعة تتشبث فيه بالبيت
العتيق بجسمك وروحك ومشاعرك جميعاً ، وأنت تسأل الله من فضا
وعفوه ، وتلوذ بحماه فى ذلة وتجرد وابتهال !

قال ابن عباس : ما بين الركن والباب يدعى الملتزم ، لا يلز
ما بينهما أحد يسأل الله شيئاً إلا أعطاه الله إياه . . .

بين الصفا والمروة

ثم غادرت المسجد الحرام لأؤدى شعيرة السعى بين الصفا والمروة

« إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ . فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ
أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا ، وَمَنْ تَطَوَّ
خَيْرًا فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ » (١) .

وأتممت السعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط ، وأنا أهتف بالتهليل

---

(١) سورة البقرة ، الآية ١٥٨ .

والتكبير والدعاء ، وأتمثل اللهفة الطاغية التى استبدت بقلب « هاجر » زوج إبراهيم منذ آلاف السنين ، وهى تهرول بين الصفا والمروة تلتمس قطرة من الماء تبلّ بها صدى وليدها إسماعيل . . .

لقد تركها إبراهيم فى هذا المكان القفر إلى جانب أطلال الكعبة ولم يترك لها ولطفلها الرضيع إلا جراباً من التمر وقربة من الماء ، وإلا دعوات توجه بها إلى الله :

« رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ . رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ . فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ . وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ »(١) .

ولم يلبث أن نفد التمر والماء ، وانقطع معهما غذاء الطفل من ثدى أمه أو كاد . وأخذ الجوع والظمأ يلهب أحشاء الطفل الرضيع . . .

وجن جنون المرأة وهى تستمع إلى أنين الطفل وبكائه المتقطع الموصول . وتلفتت فيما حولها مكروبة ذاهلة ، تتلمس الماء . . . فلا ترى إلا الجبال السود والأودية القاحلة . وانطلقت إلى الصفا تتطلع إلى الأرض والسماء ، ثم نزلت مهرولة إلى المروة تقلب طرفها الواهن وتستجمع أنفاسها اللاهثة . وما زالت كذلك تتجاذبها اللهفة والقلق والإشفاق سبعة أشواط . حتى إذا كانت على المروة وقد استبد بها اليأس وناءت بها الآلام ، توجهت ببصرها نحو الكعبة فإذا عين ماء تتدفق تحت قدمى طفلها المشرف على الهلاك !

---

(١) سورة إبراهيم ، الآية ٣٧ .

صلاة الفجر فى الحرم

وبأداء السعى بين الصفا والمروة تمت شعائر العمرة . . .
وتحللت من الإحرام . . .

ولم أستطع النوم تلك الليلة ، وأى عين تستطيع أن تغمض أمام هذه المشاهد الرائعة ، وأى قلب يستطيع أن ينام ؟

لقد قطعت آلاف الأميال منذ غادرت دارى بحلوان صباح ذلك اليوم ، إلى أن بلغت مكة قبل العشاء . رحلة طويلة مجهدة لم يتخللها إلا فترات قصيرة للراحة والاستجمام ، لا أكاد أصيب منهما طرفاً حتى أخف إلى مرحلة بعد مرحلة . وطواف وسعى ينالان من المرء كثيراً من الجهد والإرهاق . ومع كل هذا الجهد المتصل والعناء الشديد . أجدنى موفور القوة والنشاط ، متفتح المشاعر ، مرهف الأحاسيس . لا أجد فى الليل آية السكينة والنوم والأحلام ، بل يقظة واعية ، وأفراحاً تغمر النفس ، وأشواقاً تنسخ آية الليل والنهار . . .

ومرت الساعات خفيفة مسرعة ، إن صح أن الزمن هناك يقاس بالدقائق والساعات . وتردد فى سماء مكة أذان الفجر ينطلق من مآذن الحرم فى بساطة وخشوع وإيمان :

— الله أكبر ، الله أكبر . . .

وهنالك شهدت أروع صورة تبهر العين والقلب والوجدان . . .

هذا الحرم المقدس تتلألأ جنباته بالأنوار ، وهذه الكعبة بأستارها السوداء قد اصطف الناس حولها من كل اتجاه ، وقد جلسوا فى خشوع يتلون آيات الله ويرددون التسبيح والدعاء . حتى إذا قامت الصلاة خف إليها الناس حلقة وراء حلقة حتى تمتلىء بهم جنبات الحرم . وما تزال هذه الحلقات تتسع وتتداح مع الفجر فى مسراه ، حتى تشمل فى اتجاهها

نحو الكعبة جميع أقطار الأرض ؛ فإذا أربعمئة مليون من المسلمين قد اتجهت أبصارها وقلوبهم نحو الكعبة . ورفعوا أيديهم إلى آذانهم هاتفين :

— الله أكبر !

هذه الصورة الرمزية الرائعة للوحدة الإسلامية ، لا يمكن للمسلم أن يتصورها على حقيقتها المجسمة الملهمة ، ويعيش فيها بحسه ووجدانه ، إلا وهو يؤدى الصلاة الجامعة فى المسجد الحرام . . .

أما ونحن نستقبل الكعبة فى الصلاة فى كل قطر من أقطار الأرض ، فلا أحسب أن فى المسلمين من يستطيع أن يتمثل على البعد تلك الصورة الوجدانية الواعية ؛ اللهم إلا من صفت قلوبهم ، وشفت بصائرهم ، وانزاحت عن حياتهم حجب الزمان والمكان ، وليس بالكثيرين أمثال هؤلاء . . .

يوم التروية

. . . وعدت إلى الفندق قبل الزوال أتأهب للإحرام بالحج ، والانطلاق إلى منى لقضاء يوم « التروية » فى طريقى إلى عرفات . . .

ولكن صديقى قال :

— هوّن عليك يا أخى ، إنك تستطيع أن تبيت ليلتك هنا فى مكة ، ثم تقصد فى الغد إلى عرفات ، دون حاجة إلى أن تبيت بمنى .

قلت : ولكنها سنة الرسول .

قال : نعم ، وإن وراء هذه السنة حكمة يجدر تدبرها . إن الحكمة فى مبيت الحجاج بمنى يوم التروية هى التخفيف عنهم من مشاق الرحلة إلى عرفات ، وهى رحلة يقطع فيها الحجاج نحو ٢٢ كيلومتراً ، ولم تكن وسائلهم فيما مضى ميسرة كما هى الآن ؛ فهم كانوا بذلك يهونون على أنفسهم مشاق الرحلة بتجزئتها إلى مرحلتين .

أما الآن فمن اليسير على الحجاج أن يقصدوا إلى عرفات فى سياراتهم

فيبلغوها فى نحو ساعة حدة . واثم إن التزام جميع الحجاج – وهم مئات الألوف – المبيت فى منى هذا اليوم ، فيه إرهاق لهم أى إرهاق : لما يتطلبه ذلك من تكاليف المبيت فى هذا المكان ، وما يترتب على حركة مئات الألوف من ضغط وعسر واضطراب ، وبذلك تنعكس حكمة المبيت بمنى – كما شرعه الرسول – من تخفيف عن الناس وتهوين لمشاق الرحلة ، إلى غير قليل من التعقيد والإعنات .

قلت : ولكنى أميل إلى أن ألتزم فى حجتى الأولى كل ما فعله الرسول – صلى الله عليه وسلم – فإذا وفقنى الله لأداء الحج مرة أخرى أو مرات ، أخذت بهذه « الرخصة » التى لا يخامرنى شك فى أنها مستوحاة من حكمة هذه السنة النبوية .

الإحرام بالحج

وتجردت من زينتى وأحرمت بالحج ، وقد نضوت عن نفسى بعض ما عاودها من خواطر الحياة والأحياء ، وتوجهت إلى الله أقول :

– اللهم إنى أريد الحج فيسره لى ، وتقبله منى . لبيك اللهم لبيك . لبيك لا شريك لك لبيك . إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك !

وحملتنا السيارة إلى منى ، فأدركنا بها صلاة الظهر . وقضينا بها ليلتنا حتى مطلع الفجر . إنها مرحلة روحية تهيئ الحاج لموقفه العظيم فى عرفات .

قال – صلى الله عليه وسلم : الحج عرفة .

ويبدأ الوقوف بعرفة من بعد طلوع شمس اليوم التاسع لذى الحجة .

وهناك فى عرفة ، ذلك السهل المنبسط الفسيح ، تقوم خيام الحجاج على مد البصر . وفى أقصاه جبل « إلال » أو جبل الرحمة ، وقد بدا كأنه جبل من البشر لا من الصخور . . .

وتمثلت فى موقفى ذاك محمدا — صلى الله عليه وسلم — يصل إلى عرفات على ناقته « القصواء » وقد سار فى ركابه مائة ألف أو يزويدن ....

ثم تمثلته وهو يلقى على الناس خطبة الوداع . يقول العبارة فيرددها عنه ربيعة بن خلف ، يبلغها أسماع الناس . وفى هذه الخطبة أبان الرسول عن كثير من شئون الدنيا والدين فأوجز وأبلغ . فلما أتم كلامه واستوثق من أن الناس قد وعوه قال :

— اللهم هل بلغت؟

فأجاب الناس من كل صوب : نعم .

قال : اللهم فاشهد !

وفى هذا اليوم المشهود نزل عليه قوله تعالى :

« ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِيناً »[1] .

فلما سمع أبو بكر هذه الآية بكى ؛ لأنه علم أن النبى قد نعيت إليه نفسه !

الوقوف بعرفة

واجتمع فى عرفات أربعمائة ألف أو يزيدون . . .

كلهم يلبون ويسبحون ويتجهون إلى الله فى هذا الموقف العظيم بالدعاء والضراعة والاستغفار .

قال على رضى الله عنه ، إن أكثر دعاء النبى — صلى الله عليه وسلم يوم عرفة فى الموقف :

---

(١) من الآية الثالثة : سورة المائدة .

— اللهم لك الحمد : كالذى نقول ، وخيراً مما نقول .
اللهم لك صلاتى ، ونُسُكى ، ومحياى ، ومماتى . وإليك مآبى . ولك رب تراثى .
اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر ، ووسوسة الصدر ، وشتات الأمر .
اللهم إنى أعوذ بك من شر ما تهب به الريح .
وعن الحسين بن الحسن المرْوَزىّ قال : سألت سفيان بن عيينة عن أفضل الدعاء يوم عرفة قال :
— لا إله إلا الله وحده لا شريك له .
فقلت له : هذا ثناء وليس بدعاء . . .
قال : أما تعرف حديث مالك بن الحارث ؟ هو تفسيره . . .
فقلت : حدثنيه أنت .
قال : حدثنا منصور عن مالك بن الحارث قال : يقول الله عز وجل : « إذا شغل عبدى ثناؤه علىّ عن مسألتى ، أعطيته أفضل ما أعطى السائلين » .
قال : وهذا تفسير قول النبى صلى الله عليه وسلم .
ثم قال سفيان : أما علمت ما قال أمية بن أبى الصلت حين أتى عبد الله بن جدعان يطلب نائلة ؟
فقلت : لا .
فقال : قال أمية :

أأذكر حاجتى أم قد كفانى ... حياؤك ، إن شيمتك الحياء
وعلمك بالحقوق وأنت فرع ... لك الحسب المهذب والسناء
إذا أثنى عليك المرء يوماً ... كفاه من تعرضه الثناء

ثم قال : يا حسين ، هذا مخلوق يكتفى بالثناء عليه دون مسألة ، فكيف بالخالق ؟ !

المؤتمر الإسلامى

وفى هذا الموقف العظيم يوم الحج الأكبر على عرفات ، تتجلى روعة الحج وحكمته . وتبدو المنافع التى وعد الله دانية القطوف . . .

ولكن كثيراً من هذه المنافع لا يغتنمها الناس كما أرادها الله ، للفرد والجماعة . وقد يكون اغتنامهم هذه المنافع كأفراد أوفر من نصيبهم كجماعة تهيأت لهم من الأسباب المادية والروحية ما لا يتهيأ لهم أو لغيرهم من الأمم ، على الصورة الرائعة يوم عرفات . . .

قال الرئيس جمال عبد الناصر ، وهو فى موقفه ذاك وقد طافت خواطره بكل ناحية من العالم وصل إليها الإسلام :

— يجب أن تتغير نظرتنا إلى الحج . يجب ألا يصبح الذهاب إلى الكعبة تذكرة لدخول الجنة بعد عمر مديد ، أو محاولة ساذجة لشراء الغفران بعد حياة حافلة . . .

يجب أن تكون للحج قوة سياسية ضخمة . ويجب أن تهرع صحافة العالم إلى متابعة أنبائه ، لا بوصفه مراسم وتقاليد تصنع صوراً طريفة لقراء الصحف ، وإنما بوصفه مؤتمراً سياسيا دورياً يجتمع فيه كل قادة الدول الإسلامية ، ورجال الرأى فيها ، وعلماؤها فى كافة أنحاء المعرفة ، وكتابها ، وملوك الصناعة فيها ، وتجارها ، وشبابها ؛ ليضعوا فى هذا البرلمان الإسلامى العالمى خطوطاً عريضة لسياسة بلادهم وتعاونها معاً ، حتى يحين موعد اجتماعهم من جديد بعد عام » .

وقال السيد أنور السادات غداة إعلان قيام المؤتمر الإسلامى :

– إن فكرة اجتماع المسلمين كل عام فى مكة ، فكرة قديمة قدم الإسلام نفسه ، فهى أحد تعاليمه الأساسية التى نفذها المسلمون فى البداية على وجهها الصحيح ، فكانت وسيلة رائعة لتعارفهم ، وبحث مشاكلهم ، وتوحيد أهدافهم . بالإضافة إلى كونها منسكاً دينياً يهدف إلى تنمية القيم الروحية فى نفوسهم ، عن طريق تجريدهم لفترة معينة من مادية الحياة . . .

ولكن الأمر لم يستمر طويلا على هذه الصورة . فلم تلبث عوامل التأخر والجهل التى بسطها الاستعمار على معظم شعوب العالم ومن بينها الشعوب الإسلامية . أن شوهت حقيقة هذه الفكرة وحولتها عن أهدافها ، وجعلتها مجرد منسك دينى قد لا يعلم الكثيرون من المسلمين الغرض منه . . .

ونحن الآن نحاول أن نعبر هذه القنطرة الطويلة التى تفصل ماضينا عن حاضرنا ، والتى تراكمت تحتها فى هوة عميقة أخطاء قرون طويلة . . .

ونحن لا نسعى من وراء ذلك إلى أكثر من إعادة تنظيم حياتنا طبقاً لتعاليم الإسلام الصحيحة ، وتقوية أواصر الأخوة بين المسلمين . وتحويلها إلى قوة فعالة تستطيع بحكم طبيعتها أن تسهم فى تحقيق سلام العالم وتقدمه وسعادته . . .

المشعر الحرم

ثم أفاض الحجيج من عرفات . . .

مئات الألوف تنساب بهم الأباطح والأودية فى طريقهم إلى مزدلفة ، وكأنهم جيش لجب تنطلق فيالقه الراكبة والراجلة هادرة فى أحشاء الظلام !

ونزلنا مزدلفة حيث المشعر الحرام . وقد غمرنا شعور طاغ بالغبطة طمأنينة والسلام . ألسنا نستقبل منذ الليلة عيداً تولد فيه أرواحنا من ديد ؟

لقد انطوت فى عرفات صفحات الماضى القريب والبعيد ، وامحت ها تلك السطور القاتمة والظلال السوداء . . .

إن الله كتب على نفسه — وهو يباهى ملائكته بأولئك المهاجرين يه ، اللائذين بحماه ، الواقفين بين يديه فى تجرد وتوبة وضراعة — لا يردهم بعد موقفهم هذا إلا وقد امحت ذنوبهم وخطاياهم ، وأشرقت حائفهم ببيضاء من غير سوء . . .

يا للفرحة الطاغية ! ويا للإشفاق الرهيب !

الفرحة بما أصبنا من فضل ورحمة . والإشفاق مما يفرضه علينا هذا فضل وتلك الرحمة ، من تكاليف وأعباء . . .

أى مستوى هذا الذى رفعتنا إليه رحمة الله ، فإذا نحن أطهار كالملائكة ؟

وأى جهد وعزم وصبر وإيمان ، نستطيع أن نمسك به مقامنا هذا ين الملائكة فى السماء . ونغالب به نوازع البشرية فلا تهوى بنا ثانية فى هاوى الفتنة ومزالق الشرور !

وانطلق صوت المؤذن يشق ظلام الليل ويطارد فلوله الهاربة :

— الله أكبر . . الله أكبر . . .

وانطلقنا نؤدى صلاة الفجر ، وندعو الله عند المشعر الحرام ، وقد تجمعت قلوبنا ومشاعرنا عند معنى واحد . هو أن يجعلنا الله أهلا لمستقر هذه الرحمة ، وأن يمدنا من روحه القوى بما يمسك مقامنا هذا الذى بلغناه بين الملائكة فى السماء !

رمى الجمار

ثم أشرقت شمس يوم العيد الأكبر ، ونحن فى طريقنا إلى منى ذلك المشعر الذى شهد أروع قصة للتضحية والفداء . . .

قصة إبراهيم الخليل وهو يقدم بابنه إسماعيل إلى حيث يوفى نذ ويحقق رؤياه ، فيقدم فلذة كبده قرباناً إلى الله !

وقصة إسماعيل وهو يسلم رقبته للذبح ، ويقول لأبيه فى طاعة وإيمان

— « يَا أَبَتِ افْعَلْ مَاتُؤْمَرُ سَتَجِدُنِى إِنْ شَاءَ اللهُ مِن الصَّابِرِينَ » .

وفى هذا المكان رمينا جمرة العقبة ، كما كان يفعل الخليل إبراه وابنه إسماعيل ، وهما يطاردان الشيطان وهو يتعقبهما يريد أن يفتنه فيما هما مقبلان عليه من محنة وامتحان . . .

بل لعلهما كانا يطاردان تلك العواطف البشرية ، التى خلفاها عن أول الطريق : عواطف الأبوة الرحيمة الحانية فى نفس إبراهيم ، وعواطف التشبث بالحياة فى نفس إسماعيل .

وكذلك كنت أحس وأنا أرمى الحصوات السبع ، فأصيب بها ذلك النصب القائم فى ذلك المكان . . .

كنت أفعل أولا ، تحقيقاً لامتثال العبودية ، والتأسى بالرسول صلى الله عليه وسلم . . .

ثم لم أكن أتصور أنى أرجم إبليس اللعين ، وقد مسخه الله على هذه الهيئة كما يتصور البعض ، أو الذى يرمز إليه هذا النصب كما يتصور البعض الآخر . وإنما كنت أحس وأنا أرمى هذه الحصوات السبع أننى

رجم الشيطان المندس فى أعماق نفسى ، تلك الشهوات والنزغات المستقرة ، حنايا الصدر ولفائف القلب أو التى طهرنى الله منها بعد موقفى ذاك ، عرفات ، ولكنها ما زالت تتعقبنى وتراودنى فى فتنة وإغراء ، كما كانت عواطف البشرية تتعقب إبراهيم وإسماعيل فى هذا المقام .

ولكن أين هذا المعنى الذى تمثلته ، والذى استلهمته من حكمة رجم ، مما كان يجول بخواطر الكثيرين ممن يؤدون هذه الشعيرة إذ يرجمون ؟

إنك تستطيع أن تتصور الجواب عن هذا السؤال ، إذا علمت أن ن بين ما يتجمع فى المكان المسوّر الذى يحيط بتلك النصب ، كثيراً من نعال !

قال اللواء إبراهيم رفعت فى كتابه مرآة الحرمين :

— ومن فكاهات الحجاج عند رمى الجمرات ، أن بعضهم كان يرمى لحصيات السبع دفعة واحدة ، ويخاطب إبليس بلفظة : يلعن دينك !

وبعض الحجاج لا يكتفى بالحصيات الصغيرة ، بل يأتى بأحجار كبيرة ويرمى بها العمود القائم ، بل لا يرتاح إلا إذا هدم جزءاً من البناء .

وقد كان من الضباط الذين معنا ، اليوزباشى عبد الوهاب حبيب أفندى ، فلما جاء وقت رمى جمرة العقبة أخذ عساكر الحرس ورجموا إبليس دفعة واحدة ، بهيئة هجوم على عدو !

أيام التشريق

وانصرفنا إلى مكة فأتممنا شعائر الحج : طواف الإفاضة ، والسعى بين الصفا والمروة . ثم قصدنا إلى الفندق فتحللنا من الإحرام ، أى احتلقنا وتطيبنا ولبسنا المخيط . وأخذنا زينتنا من جديد ، احتفالا بالعيد الأكبر فى هذا اليوم المبارك السعيد .

وحملتنا السيارة ثانية إلى منى نقضى بها أيام التشريق ، أياماً ثا
ينتقل فيها الحجاج إلى جو جديد ، هو مرحلة وسطى بين جو العب
المتجردة الخالصة فى أيام الحج ، وجو الحياة المضطربة الصاخبة ا
تنتظرهم بعد أيام أو أسابيع .

حكمة بالغة وتربية روحية سامية ، تروض النفس على تمار
ما كسبته من مشاعر جديدة ، وتهيئها لتمثل ما انسكب فيها من مع
الحج وآدابه ، حتى إذا عادت إلى غمار الحياة من جديد كان لها رص
مذخور من هذه المعانى المستقرة فى الأعماق ، تواجه به الحياة والأح
على أسلوب مثالى رفيع .

وسقنا الهدى إلى محله متقربين به إلى الله . . .

عشرات الألوف من الإبل والبقر والأغنام ، سالت دماؤها فى أ
التشريق ، ووزعت لحومها على الفقراء والمساكين ، حتى لم يبق أ
إلا أصاب منها ما يريد ، وما زالت منها المئات ملقاة على جوانب الطر
تنتظر وحوش البرية وعقبان السماء !

ترى أليس من الممكن أن يجد المسلمون وسيلة أخرى لإنفاق ه
الصدقة ، تجعلها أكثر نفعاً للفقراء والمساكين ، وأخلق بوقاية الصح
العامة لمئات الألوف من الحجيج ؟

بلى ، وإنها لوسيلة يسيرة المأخذ ، قليلة التكاليف — إلى جان
ما تحققه من النفع ، بل وما تدره من ربح يمكن أن يوجه إلى كثير م
مصارف البر . وذلك بأن يحصر النحر فى المكان المخصص لذلك دو
غيره ، ثم توزيع لحوم الهدى على الفقراء والمساكين ، وتعبئة ما يفيض
منها فى معلبات تحمل إلى الملاجئ وإلى أهل البادية ، وإلى دور قو
يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف . والانتفاع بعد ذلك بدماء الهد
وجلوده وأوباره وأظلافه فيما تصلح له من الصناعات التى تدر الملايين . .

وكان علينا أن نرمى الجمرات كل يوم فى ثلاثة مواضع :

ـ الجمرة الأولى التى تلى منى ، والجمرة الوسطى ، وجمرة العقبة .

« وَاذْكُرُوا اللهَ فِى أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ ، فَمَنْ تَعَجَّلَ فِى يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ ، وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَى . وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ »[1] .

فى مسجد الخيف

وعرجت فى عودتى من الرجم ، على مسجد « الخيف » أتأهب لصلاة المغرب . وهو مسجد أقيم تحت سفح الجبل ، تتوسطه قبة قيل إنها تظل المكان الذى أدى فيه الرسول الصلاة .

وكان فناء المسجد الكبير المحصب غاصاً بالمصلين والعاكفين ، الذين آثروا الجلوس فيه التماساً للهواء ، وفراراً من الحر الشديد داخل البناء المعروش . ورأيت فرجة على فراش أحدهم تتسع لأكثر من ثلاثة ، فهممت أن أجلس ، ولكن الرجل ذادنى عنها بغلظة وهو يقول :

ـ دونك المسجد فيه متسع للصلاة . . .

قلت متلطفاً : ولكن ألا يسرك أن تشاركنى الأجر وأنا أصلى على فراشك هذا ، فأتى حرارة الحصباء أو حرارة البناء المعروش ؟

قال : إن هذا الفراغ ينتظر أصحابه . . .

قلت : أفى بيت الله تحجز الأمكنة ، وقد شرع الدين الأفضلية فيها للسابقين ؟

---

(١) سورة البقرة ، الآية ٢٠٣ .

قال — وقد ضاق الرجل بى وبحديثى :

— وماذا كنت تفعل لو لم تجد هذا الفراش خالياً ؟

قلت : أصلى على الحصباء الملتهبة ، أو يحتوينى البناء بحره الشديد .

قال : فلتفعل . . .

فانصرفت مغيظاً محنقاً بعد أن استنفدت صبرى وحيلتى فى إقناعه دون جدوى ، تتجاذبنى تلك النوازع البشرية التى كنت أرجمها منذ قليل !

ولكنى تغلبت على نوازعى وكظمت غيظى ، وأديت الصلاة داخل المسجد وأنا أتصبب عرقاً ، واستغفرت لنفسى ولصاحبى مما وقع فيه .

هذه القصة — وأمثالها فى الحج ليس بالقليل — تصور إلى أى مدى يأخذ بعض الحجاج بآداب الدين ، وينتفعون بروح الحج وحكمته .

هذا الدين الذى يأمر بالعرف ، ويحض على الإيثار ، ويبث روح التعاون .

وذلك الحج الذى يمحو أنانية الفرد ، ويستل شهوات النفوس ، ويجمع القلوب على الحب والألفة ، رغم اختلاف الأجناس والألوان والبيئات واللغات . . .

إن هؤلاء النفر من الحجاج ، يقدمون إلى الحج وهم لا يدركون من حكمته وغايته إلا أنه وقوف وطواف وسعى ودعاء . مناسك جامدة عمياء لا تنفذ إلى قلوبهم أسرارها ، ولا تنطبع نفوسهم بآثارها ، ولا تتطهر مشاعرهم مما رسب فيها من عيوب وأقذار . . .

وإذا كان من الصائمين نفر ليس لهم من صيامهم إلا الجوع والعطش ، فإن هؤلاء النفر من الحجاج ليس لهم من حجهم إلا عناء السفر وآلام الغربة ، ومتاعب الحياة المتجردة الشاقة ، وإلا ما يقارفونه فى حجهم هذا من ذنوب وأوزار . . .

ولقد قيل بحق إن علامة الحج المبرور هى أن يعود الحاج إلى بلده خلقاً جديداً ، قد تبدلت حياته ونظرته إلى الحياة ، واتسقت علاقته بربه وبالناس على مثل كريمة طيبة . ولا عجب بعد ذلك ألا يكون لمثل هذا الحج المبرور جزاء إلا الجنة !

فكيف بهؤلاء النفر من الحجاج إذا عادوا إلى بلادهم ، واحتوتهم الحياة الصاخبة الضارية ، وهذه حالهم فى منازل الوحى ، ومواطن النبوة ، ومشاعر التجرد والإقبال على الله ؟ !

إمارة الحج

وعدنا من منى إلى مكة قبل الغروب ، وأنا أتمثل فى هذا الموكب السيال الذى يتدفق بأفواج الحجيج قول الشاعر القديم :

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح
وشُدّت على دهم المهارى رحالنا ولم ينظر الغادى الذى هو رائح
أخـــذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطىّ الأباطح

وقضينا ليلتنا فى الفندق نسمر مع طائفة من نزلائه . وكان من بينهم أمير الحج . . .

وتطرق الحديث إلى تاريخ إمارة الحج فى الإسلام . قال صديقى :

— كان أبو بكر — رضى الله عنه — أول أمير للحج فى الإسلام . ولاه الرسول — صلى الله عليه وسلم — إمارة الحج فى العام التاسع للهجرة . وكان البيت الحرام لا يزال يستقبل المشركين الذين يحجون إليه كل عام ، ويؤدون مناسكهم على طريقتهم الجاهلية . فقد كان بينهم وبين الرسول عهد ألا يرد أحد عن البيت الحرام .

وكان أبو بكر والمسلمون بمنى حين قدم عليهم من المدينة على

ابن أبى طالب – رضى الله عنه – فلما رآه أبو بكر قال له :

– أمير أم مأمور ؟

قال : بل مأمور . . .

إنه جاء يحمل إلى المسلمين رسالة السماء فى يوم الحج الأكبر . فقد نزلت على الرسول – صلى الله عليه وسلم – سورة « براءة » فأمر علي ابن أبى طالب أن يلحق بالمسلمين فى عرفات ليبلغهم إياها .

فلما اجتمع الناس فى منى ، وقف على وإلى جانبه أبو هريرة . فنادى على فى الناس يتلو قوله تعالى ...

ثم صاح على بالناس ...

– أيها الناس ، إنه لا يدخل الجنة كافر ، ولا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان . ومن كان له عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عهد فهو إلى مدته .

وكانت فترة الانتقال التى حددتها الآية أربعة أشهر . ومن بعدئذ لم يحج مشرك ولم يطف بالبيت عريان ، ولم يبق بين المسلمين والمشركين عهد .

* * *

وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أمير الحاج فى العام التالى . . .

وحج أبو بكر بالناس فى خلافته . ومن بعده عمر وعثمان ومعاوية وعبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان ، وغيرهم من الخلفاء والسلاطين والولاة .

وقال محمد بن عبد القادر الأنصارى فى كتابه « درر الفرائد المنظمة فى أخبار الحج ومكة المكرمة » : إن أمير الحج فى عهده – أواخر القرن العاشر الهجرى – كان يعينه السلطان ليلة المولد النبوى . فإذا ما اجتمع الأمراء لدى السلطان فى ليلة الثانى عشر من ربيع الأول ليسمعوا القرآن

وقصة المولد ، وحان وقت إدارة الشراب الحلال ، بدأ الساقى بالسلطان فشرب من كوبه يسيراً ثم يأمر بالباقى إلى من يريده أميراً للحج ، فإذا ما أعطى الكوب عرف أنه الأمير فقام للسلطان شاكراً ، وعرف الحاضرون فقاموا للأمير مهنئين . ومن ذلك الوقت يعد عدته للسفر دون أن يكون له قانون معين يسير عليه ، ويعينه على أداء عمله أصحابه ومحبوه فيقدمون له المال والغلال والهدايا .

وكان للأمير فى نفوس الناس مكانة سامية وجاه عظيم ، حتى كانوا يتقربون إليه بمراعاة خدمه وغلمانه . وكان إذا احتمى بملاذه قاتل النفس المحرمة أو أحد الجناة لا يتعرض له بسوء . ثم تغيرت الحال وأصبح الناس يعاملون الأمير كما يعاملون أحد الرعايا ، وهذا هو الحق بعينه ؛ فإن الإمرة ما كانت لتمنع فى الشرع أولياء القتيل من أن يأخذوا حقهم ، وما كانت سداً دون إقامة الحدود والقيام بالجزاء العدل » .

قصة المحمل

وتتصل بإمارة الحج قصة المحمل والكسوة . والأصل فى المحمل أنه الجمل الذى تحمل عليه الهدايا إلى الكعبة . قال السيوطى إن أول من أحدث المحامل فى طريق مكة الحجاج بن يوسف الثقفى .

وقال محمد بن عبد القادر الأنصارى إن المحامل التى اعتادت أن ترد من الأقاليم إلى الحجاز أربعة : العراقى ، والمصرى ، والشامى ، واليمنى .

وقد بدأ الاحتفال بسفر المحمل فى عهد الدولة الأيوبية ، واتخذ

مع مرور الزمن صفة تقرب من القداسة عند بعض العامة . قال البتنونى فى « الرحلة الحجازية »[١] :

— . . . وكان للمحمل عشرون جملا . وكان لها مناخ فى بولاق بجوار شيخ اسمه سيدى سعيد . وكانت الحكومة فى الزمن السابق تشترى مع هذه الجمال جملا تجعله فداء عنها كل سنة ، فيأتى به الجمالة قبل موكب الحج ويركبون عليه شيخ الجمل ، ويسيرون به ومعهم العكامة[٢] ، والضويّة[٣] ، وأمامهم الفرايحية يحيط بهم كثير من الغوغاء . ويمرون فى القاهرة ثم يذهبون إلى باب الشيخ سعيد ويذبحونه هناك . وكان المحاملى يأخذ ربعه ، والجمال ربعه ، وخدمة الشيخ سعيد ربعه ، وخدمة الشيخ يونس الربع الباقى . وكانوا يبيعون لحمه إلى الناس على سبيل البركة ، مدعين أن لحمه ينفع للصداع ، وشحمه للبواسير ! »

وقد حدثت بسبب المحمل عدة وقائع بين أمير الحج المصرى وآل سعود . ففى عام ١٢٢١ هـ أحرق الأمير السعودى المحمل ، وفى أوائل عهد الملك عبد العزيز حدثت فتنة كبيرة بسبب المحمل ذهب ضحيتها كثيرون ...

كسوة الكعبة

أما كسوة الكعبة فقد كانت لها أوقاف لعل أقدمها ما وقفه الملك الصالح إسماعيل ابن الملك الناصر بن قلاوون ، فقد اشترى عام ٧٥٠ هـ

---

(١) عام ١٣٢٨ هـ — ١٩١٠ م .
(٢) العكامة : الذين يضعون الأحمال على الجمال ويحافظون عليها .
(٣) الضوية : الذين يحملون المشاعل فى موكب الحج فى الليالى المظلمة .

من بيت المال ثلاث قرى هى : بسوس ، وأبو الغيط ، وسنديس — من قرى القليوبية ، و وقفها على كسوة الكعبة والحجرة النبوية مرة كل خمس سنين .

واشترى السلطان سليمان خان (٩٢٦ — ٩٧٤ هـ) سبع قرى أخرى بالولاية الشرقية أضافها إلى هذه القرى الثلاث ، وهى : سلكة ، سرو بجنجة ، قريش الحجر ، منايل وكوم رحان ، بجام ، منية النصارى ، بطاليا . وقدرت حصيلة هذه الأوقاف بنحو ٣٦٥ ألف درهم فضى فى السنة .

وفى أوائل القرن الثالث عشر للهجرة حلت هذه الأوقاف ، وصارت الكسوة تصنع من الميزانية العامة للدولة .

والكسوة ثمانية أحمال من الحرير الأسود المطرز بالكتابة ، تتألف من ٦٢ ثوباً طول كل منها ٢٦ ذراعاً بلدياً وعرضه ٩٠ سم . ولكل حمل من الأحمال الثمانية حزام يتراوح طوله بين ١٢ ذراعاً وسبعة أثمان الذراع ، وبين ٩ أذرع وسبعة أثمان الذراع .

وللكسوة أجزاء أخرى ، منها ستارة باب الكعبة ويسمونها البرقع ، وهى محلاة بالذهب والفضة . وكسوة مقام إبراهيم ، وستارة باب مقصورة إبراهيم . وستارة باب التوبة . وستارة باب المنبر . وكيس مفتاح الكعبة .

وعند وصول الكسوة إلى مكة ، تسلم إلى الشيبى سادن الكعبة بمقتضى إشهاد رسمى . وفى صباح يوم النحر والحجاج بمنى تكسى بها الكعبة بدلا من الكسوة القديمة .

وكان عمر — رضى الله عنه — ينزع الكسوة القديمة ويفرقها على الحجاج . . .

وقال اللواء إبراهيم رفعت ، وكان أميراً للحج حتى عام ١٩٠٨ : أما الكسوة القديمة فيرسل المقصب منها عادة إلى الشريف . وإذا كان الحج بالجمعة يرسل إلى جلالة السلطان . وغير المقصب يأخذه الشيخ الشيبي فيبيعه للحجاج . وبجوار باب السلام حوانيت تباع فيها الكسوة مخصوصة بذلك .

وترجع كسوة الكعبة إلى عهود بعيدة . وقد قيل إن أول من كساها « تبّعٌ أبو كرب أسعد » ملك حمير عام ٢٢٠ قبل الهجرة . كساها بالبرود المقصبة ، وعمل لها باباً ومفتاحاً . وفى ذلك يقول :

فكسونا البيت الذى حرم الله ... ملاء مقصّبا وبـــرودا
وأقمنـــا بـــه من الشهر عشرا ... وجعلنا لنـــا به إقليـــدا[1]
ثم طفنا بالبيت سبعاً وسبعاً ... وسجدنا عنـــد المقام سجودا

ثم ظلت الكعبة تكسى بالجلود والقباطى — وهو قماش مصرى — وكساها الرسول ثياباً يمانية . وكانت الأستار يوضع بعضها فوق بعض حتى أثقلت بناء الكعبة ، فأمر الخليفة المهدى العباسى بالاقتصار على كسوة واحدة من الحرير الأسود ، وكان السواد شعار العباسيين . . .

ومن الموافقات اللطيفة ، أن هذه الستائر كانت تصنع فى مدينة مصرية اسمها « تنيس » بالقرب من دمياط ، وفى بعض البلاد المصرية الأخرى ، إلى أواخر عهد العباسيين . ثم استأثرت مصر فيما بعد بالأمر كله ، فصارت هى التى تتولى كسوة الكعبة على نفقتها ومن صنع أبنائها حتى اليوم .

---

(١) الإقليد : المفتاح .

أما الصرة التى يحملها معه أمير الحج للإنفاق على الحرمين ، فأول ما عرف ذلك كان فى عهد المقتدر بالله العباسى (٢٩٥ — ٣٢٠ هـ) وكان السلطان سليمان خان يرسل لأهل مكة وحدها ألف دينار أشرفى أحمر كل عام .

تاريخ الكعبة

قال صاحبى : هل لك فى زيارة جوف الكعبة ؟

قلت : حبذا الأمر . . .

ووقف صاحبى يحدثنى عن تاريخ الكعبة ، ريثما يهيئ لنا السادن فرصة الدخول .

هذا البناء القائم الآن على صورته هذه ، ليس هو الأثر الذى تركه إبراهيم منذ آلاف السنين ؛ فقد تعاورته الأحداث وتداولته الأحقاب بالهدم والبناء . ولعل أصح ما يروى فى ذلك ما كان قبيل البعثة المحمدية ، حينما طغى السيل على الكعبة فأوهى بنيانها وصدع جدرانها ، فأعادت قريش بناءها من جديد .

على أن قريشا أنقصت من مساحة الكعبة حينما أعادت بناءها . ولذلك قال الرسول — صلى الله عليه وسلم — لعائشة فيما بعد :

— لولا أن قومك حديثو عهد بالإسلام ، لهدمت الكعبة فألزقتها بالأرض ، ولجعلت لها باباً شرقياً وباباً غربياً ، وزدت فيها ستة أذرع من الحجر ؛ فإن قريشاً استقصرتها حينما بنت الكعبة .

ثم كانت الفتنة الكبرى بعد مقتل عثمان ، وانتقاض عبد الله ابن الزبير على بنى أمية ، وهو يؤجج الثورة عليهم فى مكة . فأرسل يزيد ابن معاوية جيشاً لإخضاعه ، واعتصم ابن الزبير ورجاله بالحرم . وهنا سجل التاريخ صورة إلى جانب صورة . . .

أما الأولى فهى صورة محمد يوم فتح مكة وأمكنه الله من رقاب قريش ، وعلى رأسهم أبو سفيان جد يزيد هذا . إذ بعث الرسول من ينادى فيهم :

« من دخل المسجد فهو آمن ، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن » .

وأما الصورة الأخرى ، فهى صورة جيش يزيد هذا الذى جاء يغزو مكة ، فلما احتمى عبد الله بن الزبير ورجاله بحمى الله ، أخذت المجانيق ترمى هذا الحمى ومن يلوذون به بمئات القذائف ، حتى احترقت الكعبة وتصدع بناؤها . على أن رب البيت لم يمهل هذا الطاغية ، كما لم يمهل من قبله أصحاب الفيل ، فلم تلبث مكة أن جاءها معناه . . .

وعاد الجيش الأموى إلى الشام ، وعادت مكة تتطلع إلى البيت العتيق فى حسرة وإشفاق ، وهو فى حالته تلك من التصدع والاحتراق ، حتى ليرشك أن تتناثر حجارته من وقع الحمام !

ووجدها ابن الزبير فرصة لإعادة بناء الكعبة على أساس إبراهيم ، وبالصورة التى هم الرسول أن تكون عليها لولا أن خشى الفتنة يومذاك لقرب عهد الناس بالجاهلية وحداثة عهدهم بالإسلام .

على أن هذا البناء الجديد الذى أقامه ابن الزبير لم يلبث إلا عشر سنوات ، ثم تجدد الصراع بين بنى أمية وعبد الله بن الزبير ، وحاصر

الحجاج ابن الزبير بمكة وقتله ، ثم نقص ما زاده ابن الزبير فى بناء الكعبة ، وسد بابها الغربى ، وأعادها على الصورة التى كانت عليها فى الجاهلية .

وظل بناء الكعبة هذا مشكلة من المشكلات السياسية والدينية طوال العهد الأموى ومطلع العهد العباسى : هل يبقى البناء على صورته هذه التى ردها الحجاج إلى ما كانت عليه فى الجاهلية ، أم يعاد بناء الكعبة على الصورة التى ردها ابن الزبير إلى ما كانت عليه فى عهد إبراهيم ؟

واستشار هارون الرشيد الإمام مالكاً فى أن يعيدها إلى ما كانت عليه فى عهد إبراهيم . ولكن الإمام مالكا نظر إلى الأمر نظرة أبعد مما يتصل بالتحقيق التاريخى لطراز الكعبة ؛ إنه نظر إلى حرمة البيت العتيق وقداسته ، وأراد أن يوصد ذلك الباب الذى تنفذ منه أهواء السياسة للعبث بحرمة البيت وقداسته . فقال لهارون الرشيد :

ـ يا أمير المؤمنين ، لا تجعل كعبة الله ملعبة للملوك ، لا يشاء أحد أن يهدمها إلا هدمها !

وظلت الكعبة على حالها تلك ألف عام . . .

ثم عدا عليها السيل فصدع بنيانها . وهب العالم الإسلامى لإعادة عمارتها قوية مدعمة ، مع المحافظة على كثير من أحجارها السليمة . واقتضى ذلك ترميم الحجر الأسود وتقوية أجزائه فى إطار من الفضة . وكان نصيب مصر فى هذه العمارة هو النصيب الأوفى ، إذ قدمت عدداً كبيراً من المهندسين والصناع ، وأمدتهم بكل ما تحتاج إليه العمارة من مواد ، وأنفقت فى ذلك نحو ستة عشر ألفاً من الجنيهات .

ذلك هو بناء الكعبة القائم اليوم !

فى جوف الكعبة

وقد إلينا سادن الكعبة من آل الشيبى ، وهم بطن من قريش ، ظلوا يتوارثون السدانة من عهد الجاهلية إلى يومنا هذا . وكانت مفاتيح الكعبة عندما فتح الرسول مكة مع عثمان بن طلحة ، فأخذها منه الرسول وأراد أن يحجزها عنه . فنزل عليه قوله تعالى :

« إِنَّ اللهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا . . »

فردّها الرسول إلى عثمان بن طلحة قائلا :

— هاكم خذوها خالدة تالدة ، لا ينزعها منكم إلا ظالم .

وصعدنا على مرقاة خشبية متحركة حتى بلغنا باب الكعبة ، وهو على ارتفاع غير قليل من الأرض . وقد صنع الباب الحالى فى عهد الملك عبد العزيز آل سعود . وكان الباب الذى قبله مهدى للكعبة من السلطان مراد خان قبل ذلك التاريخ بنحو ١٢٥ سنة .

وفتح الشيبى الباب . . .

الله أكبر ، الله أكبر ! !

لقد كنت منذ لحظات أملأ ناظرى وخاطرى بمشهد الكعبة ، فى بنائها الرهيب وأستارها السوداء ، وأطوف حولها فى خشوع وتجرد وابتهال ، وأطويها فى مشاعرى بكل ما تفيض به روعة الحاضر وذكريات الماضى البعيد . وهأنذا الآن أخطو إلى جوف الكعبة فتطوينى هى بين حناياها ،

وإذا بروحى تمتد وقلبى يكبر حتى يملأ جوف الكعبة خافقاً بالتسبيح والدعاء ، وإذا بى أحس كأننى جزء حى فى ذلك البناء الخالد ، هو بمثابة القلب الخافق فى كائن ينبض بالحياة !

وصرفنى هذا الشعور لحظات لا أدرى مداها عن أن أتبين معالم الكعبة ، أو أصغى إلى ما يتحدث به الدليل . . .

ثم أفقت من هذا الاستغراق الروحى ، وتقدمت إلى الجدار الذى يقابل الباب ، ووقفت تجاه علامتين إزاءه أقيم الصلاة ؛ إنه المكان الذى كان يصلى فيه محمد عليه الصلاة والسلام !

والكعبة من الداخل أشبه بحجرة مربعة الأضلاع ، غير أن زاويتها الشمالية إلى يمين الداخل مشطورة ، وبهذه الشطرة باب صغير يؤدى إلى سلم يصل إلى سطح الكعبة . ويعتمد سقفها على أعمدة ثلاثة من خشب العود ، امتنعت على البلى من عهد عبد الله بن الزبير حتى اليوم ، إلا ما أصاب قواعدها من التآكل فى العهد الأخير فشدت هذه القواعد بأطواق لدعمها وحمايتها . وتكسو جدران الكعبة أستار من الحرير مطرزة بالآيات القرآنية وغيرها . وقد تنافس الملوك والأثرياء فى تقديم الهدايا النفيسة ، وتزيين جوف الكعبة بالقناديل الذهبية والستائر الثمينة فى مختلف العصور . ولكن هذه النفائس كانت عرضة للنهب والسلب ، وأشهر ما يذكره التاريخ من ذلك حين أغار القرامطة على مكة عام ٣١٧ هـ ، فجردوا الكعبة مما فى خزانتها من الجواهر ، وانتزعوا ما كان بها من صفائح الذهب ، واقتلعوا الحجر الأسود من مكانه وعادوا به إلى « هجر » وهى قرية من أعمال البحرين كان قد بنى بها أبو طاهر القرمطى بيتاً أراد أن يصرف المسلمين عن الكعبة بالحج إليه . . .

قيل : وقد سار أبو طاهر هذا فى زحفه على مكة فى عسكر كثيف . وكان المسلمون وقتئذ فى موسم الحج ، فبغتهم هو ورجاله بالسيوف تحتز

أعناقهم وتسفك دماءهم فى الشهر الحرام والبلد الحرام ، حتى صرع منهم ثلاثين ألفاً أو يزيدون !

على أن القرامطة فشلوا فى صرف الناس عن قبلتهم هذه ، إلى تلك القبلة التى أقاموها فى « هجر » ، واضطروا فما بعد إلى إعادة الحجر الأسود إلى مكانه من الكعبة ، وظل البيت — كما كان من عهد إبراهيم — مثابة للناس وقبلة للطائفين والعاكفين والركع السجود .

الحجر الأسود

قال صاحبى : هل قبلت الحجر الأسود ؟

قلت : لا ، فقد اكتفيت بالإشارة إليه مكبراً حين أبدأ الطواف وحين أحاذيه . . .

قال : ولماذا لا تقبله أسوة بالرسول ؟

قلت : أوَ لا ترى هذا التزاحم الشديد على تقبيله ، وهذا الشرطى القائم بمقرعته ، يصد ذلك التيار المتدفق ويحاول تنظيم موجاته المتدافعة فلا يكاد ؟

قال : فلتحاول حين تهدأ موجة الطواف .

قلت : نعم ، ورحم الله ابن الخطاب إذ يقول : إنى أعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع ، ولولا أنى رأيت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يقبلك ما قبلتك !

قال : ألا تدرى الحكمة من تقبيل الحجر الأسود ؟

قلت : إن الحكمة فى كثير من الأمور « التعبدية » قد لا تكون واضحة المعنى ، محدودة المعالم . وحسبها أن فيها معنى الخضوع والامتثال لما أمر الله به ، أو التأسى بما فعله الرسول الذى لا ينطق عن الهوى . . .

قال : إنه لكذلك . وإن للأستاذ محمد رشيد رضا ـ رحمه الله ـ رأيا فى ذلك هو أدنى إلى العقل لمن أراد أن يزن الأمر بميزانه . إنه يرى قيمة الحجر الأسود فى أنه العلامة الظاهرة المميزة بلونها المغاير للبناء ، والتى يبدأ منها الطواف حول الكعبة . كما يرى أن هذا الحجر هو الأثر الوحيد فى بناء الكعبة الذى يمكن القطع بأنه الأثر الباقى من عهد إبراهيم ، لم يدركه البلى أو تتبدله يد العمارة على اختلاف الأحداث وتعاقب العصور .

ثم هو على هذا وذاك جدير بالاحترام لأنه من بيت الله ، والشاهد الأوحد الذى يهتدى به الحجاج فى أداء شعيرة الطواف .

ومن المعانى الجميلة فى حكمة تقبيل الحجر الأسود قول الشاعر عمر بهاء الدين الأميرى فى ديوانه « مع الله » :

الحجر الأسود قبلتـــه بشفتى قلبى ، وكله وله
لا لاعتقادى أنه نافع ، بل لهيامى بالذى قبـــله
محمد أطهر أنفاسه ، كانت على صفحته مرسله
قبله ، والنور من ثغره يشرق آيات هدى منزله
قبلت ما قبل ثغره الناطق بالوحى ، ابتغاء الصله !

إنه معنى جميل ، وجديد . . .

فهو يقول إنه قبل الحجر الأسود ، بشفتى روحه لا فمه وحسب ، حيث التقت بالحجر الأسود شفتا الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ ابتغاء الصلة بتلك القبلة النبوية الطاهرة . . .

. . . وانتظرت حتى هدأت موجة الطواف فى الهزيع الأخير من الليل ، ثم أقحمت نفسى فى صف من الحجاج حتى بلغت الحجر الأسود ، فأدخلت رأسى فى طاقته التى برتها قبلات الملايين بعد الملايين على مر السنين والأحقاب ، وقبلته وأنا أردد قول ابن الخطاب . . .

وتدافع من ورائى جماعة من البدو فدفع أحدهم رأس صاحبه بعنف فى هذه الطاقة وهو يصيح فى نشوة ولهفة : حجّ . . حج !

ونظرت فإذا رجل يسيل وجهه بالدماء ، وهو فى غمرة البهجة والسرور . . .

وكذلك فعل أصحابه واحداً بعد الآخر . . .

إن الحج عند هؤلاء لا تتم مناسكه ، ولا يكون مقبولا عند الله ، إلا إذا أريقت هذه الدماء الزكية على الحجر الأسود !

وحمدت الله أن لم يكن موضعى عند تقبيل الحجر الأسود بين جماعة من هؤلاء . وتمنيت لو أن عمر بن الخطاب هو ذلك القائم عند الحجر الأسود ، لا يضرب بدّرته هذه الرءوس ولكن يضرب بسيفه الأعناق . . .

دعاء البدو

قال صاحبى : حسبك ، واستغفر الله من سوء ظنك بأمثال هؤلاء . . .

أما قرأت قول الرحالة ابن جبير فى قبائل السراة اليمنية ؟

قلت : وماذا قال ابن جبير ؟

قال : لقد وصف من أحوال هؤلاء البدو عجباً فقال :

— « القوم عرب صرحاء ، فصحاء ، جفاة ، أشداء . لم تغذهم الرقة الحضرية ، ولا هذبتهم السير المدنية ، ولا سددت مقاصدهم السنن الشرعية ، فلا تجد لديهم من أعمال العبادات سوى صدق النية . فهم إذا طافوا بالكعبة المقدسة يتطارحون عليها تطارح البنين على الأم المشفقة ؛ لائذين بجوارها ، متعلقين بأستارها . فحيثما علقت أيديهم منها تمزق لشدة اجتذابهم لها وانكبابهم عليها . وفى أثناء ذلك تصدع ألسنتهم بأدعية

تتصدع لها القلوب ، وتتفجر لها الأعين الجوامد ، فترى الناس حولهم باسطى أيديهم ، مؤمنين على أدعيتهم ، متلقفين لها من ألسنتهم . . .

وأما صلاتهم فلم يذكر فى مضحكات الأعراب أظرف منها . وذلك أنهم يستقبلون البيت الكريم ، فيسجدون دون ركوع ، وينقرون بالسجود نقرا . ومنهم من يسجد الثنتين والثلاث والأربع ، ثم يرفعون رءوسهم من الأرض قليلا وايديهم مبسوطة عليها ، ويلتفتون يميناً وشمالا التفات المروّع ، ثم يسلمون أو يقومون دون تسليم ولا جلوس للتشهد ، وربما تكلموا أثناء ذلك ، وربما رفع أحدهم رأسه من سجوده إلى صاحبه وصاح به ، ووصاه بما شاء . . ثم عاد إلى سجوده ، إلى غير ذلك من أحوالهم الغريبة !

وعلى ما وصفنا من أحوالهم فهم أهل اعتقاد للإيمان الصحيح. وذكر أن النبى — صلى الله عليه وسلم — ذكرهم وأوصى بهم خيراً ، وقال : "علموهم الصلاة يعلموكم الدعاء" وذكر أن عبد الله بن عمر — رضى الله عنهما — كان يحترم وقت طوافهم ، ويتحرى الدخول فى جملتهم ، تبركاً بأدعيتهم . فشأنهم عجب كله » .

النساء فى الحرم

ومن الحقائق النفسية التى يحسها الإنسان فى الطواف وفى مقامه بالمسجد الحرام ، الانصراف عن تعلق النظر أو انشغال القلب بمن يطفن من النساء . إنه مقام يستأثر بالمشاعر جميعاً ، فلا ينازعها فيه أى مظهر مما يستهوى القلوب والأنظار .

على أن ذلك لم يمنع أحد الشعراء أن يقول :

يا حبذا الموسم من موقف وحبذا الكعبة من مسجد
وحبذا اللائى يزاحمننا عند استلام الحجر الأسود

فلما بلغ ذلك خالد بن عبد الله القسرى ، والى مكة على عهد عبد الملك بن مروان — غضب وقال :

— أما إنهن لا يزاحمنك بعد هذا !

وأمر بعدم اختلاط النساء بالرجال فى المطاف . وأجلس عند كل ركن حرساً بأيديهم السياط يمنعون النساء أن تختلطن بالرجال .

وقال رجل من موالى الأنصار :

ليتنى فى المؤذنين نهارى إنهم يبصرون ما فى السطوح
فيشيرون أو يشير إليهم بالهوى كل ذات دل مليح

وهنا أسرف خالد القسرى ، أو أسرف عليه رواة التاريخ ؛ فقد ذكروا أنه حين سمع هذه الأبيات أمر بهدم المنائر !

وكانت النساء على عهد الرسول — صلى الله عليه وسلم — يصلين فى المسجد مع الرجال . يقف الرجال وخلفهم الصبيان والنساء فى المؤخرة .

وفى منتصف القرن الثالث للهجرة وضع على بن الحسن الهاشمى والى مكة حاجزاً يفصل النساء عن الرجال فى الصلاة .

وقد شهد اللواء إبراهيم رفعت أمير الحج عام ١٣٢٠ هـ مكاناً للنساء داخل المسجد الحرام عليه خشب « شيش » ارتفاعه مترّان . ولكنه لما عاد للحج بعد خمس سنين وجد هذا الحاجز قد رفع .

تاريخ المسجد الحرام

أما المسجد الحرام فيبدأ تاريخه منذ ظهور الإسلام . أما قبل ذلك فقد كانت الكعبة قائمة فى مكانها هذا وليس حولها إلا الفضاء الممتد

إلى جميع الجهات . فلم تكن ثمة دور ولا سور ؛ لأن القبائل التى سكنت مكة من العمالقة وجرهم وخزاعة وقريش وغيرهم ، كانوا يقطنون فى شعاب مكة ويتركون ما حول الكعبة ، تعظيما لشأن البيت العتيق .

وظل الأمر كذلك حتى انتقلت ولاية مكة إلى قصى بن كلاب — الجد الخامس للرسول صلى الله عليه وسلم ، فجمع بطون قريش وأمرهم أن يبنوا بيوتهم حول الكعبة وقال لهم :

— إن سكنتم حول البيت هابتكم الناس ، ولم تستحل قتالكم والهجوم عليكم .

وبدأ قصى فبنى دار الندوة فى الجانب الشمالى . وبنت قريش بيوتها حول الكعبة . وكان كل بيت منها على هيئة دائرة حتى لا تكون شبيهة ببناء الكعبة المربع الأضلاع . وكان ارتفاعها أقل من ارتفاع الكعبة احتراماً لها . وكان لكل بيت باب يتجه إلى الكعبة ، وبين كل بيتين ممر يفضى إلى المطاف .

ولم يكن العرب فى جاهليتهم يعرفون الصلاة ، وإنما كانت عبادتهم الطواف . فلم يكن ثمة مسجد حول الكعبة . وإنما كان مطاف للعبادة ، ومجالس عامة يتناول الناس فيها مختلف الشئون .

فلما جاء الإسلام ، كان من أسلم من أهل مكة يستخفى بصلاته فى بيته أو فى أحد الشعاب . ولم يصل حول الكعبة إلا الرسول وأبو بكر فى فترات متقطعة . ولم يستعلن المسلمون بصلاتهم ويؤدوها حول الكعبة جهاراً إلا بعد فتح مكة . ومن ثم بدأ تاريخ المسجد الحرام .

وظل مدار المطاف حول الكعبة مسجداً فى عهد الرسول وعهد أبى بكر . وفى عهد عمر كان المسجد قد ضاق بالمصلين ، فعرض على أصحاب الدور المحيطة بالحرم أن يشترى منهم دورهم فيزيلها ليزيد فى مساحة الحرم . فأبى بعضهم عليه ذلك ، فأجلاهم عن دورهم ووضع لهم

ثمنها فى خزانة الكعبة ، ثم قال لهم :

— إنما نزلتم على الكعبة ، فهو فناؤها . . . ولم تنزل الكعبة عليكم !

ثم أقام عمر حول المسجد سوراً عليه أبواب .

وكذلك فعل عثمان ؛ فقد زاد فى مساحة الحرم بعد أن أزال الدور التى حوله بمقدار الزيادة . ووقع له من أصحاب هذه الدور ما وقع لعمر من قبل ؛ فقد امتنع بعضهم عن بيع دورهم ورفضوا قبض ثمنها ، فأمر عثمان بهدم هذه الدور على أصحابها . . .

فصاحوا به !

فغضب عثمان وقال لهم :

— جرأكم علىّ حلمى عنكم ؛ فقد فعل بكم عمر هذا فلم يصح به أحد . . .

ثم أمر بهم إلى الحبس ، فشفع فيهم عبد الله بن خالد بن أسيد ، فأخلى عثمان سبيلهم وأخذوا ثمن دورهم .

وزاد عبد الله بن الزبير فى المسجد زيادة كبيرة عام ٦٦ هـ ، ثم جدد عبد الملك بن مروان عمارة المسجد الحرام عام ٧٥ هـ فرفع جدرانه وزين رأس كل أسطوانة بخمسين مثقالا من الذهب . ثم كانت الزيادة والتجديد اللذان تما فى عهد الوليد بن عبد الملك عام ٩١ هـ .

وتمت بعد ذلك زيادات وتجديدات أخرى أهمها زيادة محمد المهدى العباسى عامى ١٦٠ و ١٦١ هـ ، وقد قدرت تكاليفها بما فى ذلك ثمن الدور التى هدمت وأدخلت فى التوسعة ، بنحو أربعة ملايين و ٥٠٠ ألف دينار .

وبدأت منذ سنوات أكبر عمارة للمسجد الحرام وللمسعى ، رصدت لها خمسون مليوناً من الجنيهات .

فى غار ثور

قلت لصاحبى :

ــ فلندع حديث الحرم وعمارته ، ونمض مع القصة إلى معالمها الأخرى . فما أحب أن تفلت منا هذه الفرصة قبل أن نبلغ مع هذا الجو تاريخى مداه . . .

وحملتنا السيارة إلى جبل ثور ، جنوبى مكة . وأغفت عينى حين ستيقظت مشاعرى ، فإذا بى ألمح شبحين قد تدثرا بالظلام ، يتخلف حدهما فيسير من وراء مرة ، ثم يسرع فيسير من أمام مرة أخرى . . .

ثم إذا بى أسمع همس الشبح الآخر ، وهو يسأل صاحبه عن أمره ذاك يقول له :

ــ يا رسول الله ، أذكر الطلب فأمشى خلفك ، ثم أذكر الرصد فأمشى بين يديك !

فيشرق وجه الرسول بابتسامة جميلة ، ثم يقول :

ــ يا أبا بكر ، لو كان شىء أحببت أن يكون بك دونى ؟

فيجيبه أبو بكر فى حرارة دافقة :

ــ نعم ، والذى بعثك بالحق !

وبلغنا قمة الجبل بعد جهد . ثم وقفنا أمام الغار الذى احتضن الدعوة الإسلامية وهى وليد طريد ، وحمى الرسول وصاحبه من كيد المشركين حين ائتمروا به ذات ليلة ليقتلوه . . .

ثم عادت بى مشاعرى إلى أعماق الماضى البعيد . . .

وانبثقت من جوف الغار المظلم أضواء ذلك الماضى ، فإذا أبو بكر يسبق محمداً فى الدخول إلى الغار ، فيستبرئه مما عساه يكون فيه . ثم ها هما يصليان فى جوف الغار شكراً لله الذى هيأ لهما هذا الحمى الأمين .

وطلعت الشمس فكانت أظلم على قريش من قطع الليل الأسود فقد أفلت الأسد الحبيس من إساره . . .

إن محمداً قد فر من مكة ، وإن هذا الذى كان ينام على فراشه ويتربصون به الموت ، ليس إلا عليا بن أبى طالب !

وانطلقت خيلهم تركض فى كل سبيل ، وتعدو فى كل اتجاه . وانطلق قصاصوا الأثر يستنطقون ذرات الرمال ومسارب الجبال ، وبلغ بعض فتيانهم جبل ثور ، ثم خطر لهم أن يصعدوا فينظروا لعل محمداً وصاحبه قد أويا إلى غاره . . .

ووقف أحدهم على باب الغار يجيل بصره فلا يرى شيئاً .

وهمس أبو بكر فى أذن الرسول يقول :

— لو نظر أحدهم تحت قدميه لأبصرنا !

فيجيبه الرسول فى طمأنينة وعزاء :

— يا أبا بكر ، ما ظنك فى رجلين الله ثالثهما ! لا تحزن إن الله معنا .

«إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحزَنْ إِنَّ اللهَ مَعَنَا ،فَأَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا . وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [1] » .

---

(١) سورة التوبة ، الآية ٤٠ .

فى غار حراء

ثم قفلنا راجعين إلى مكة . وتواعدت مع صاحبى على أن نقصد فى صباح اليوم التالى لزيارة غار حراء . . .

وقال صاحبى وهو يودعنى :

ــ أخشى أن تكون قد أصابتك عدوى بعض الحجاج ، الذين يعتبرون زيارة هذه المشاهد وأمثالها من مناسك الحج ، ويسرفون فيما يذهبون من ذلك أيما إسراف .

قلت : معاذ الله أن أكون من الجاهلين . فلم تكن هذه المشاهد مزاراً فى عهد الرسول وأصحابه . وإنى لأنكر أشد الإنكار العقائد الفاسدة التى طغت على بعض المسلمين فى عصور الجهل والانحلال ، والتى رسبت فى أعماقهم من آثار الوثنيات الأولى ، وآثار السموم الإسرائيلية التى سرت فى بعض الكتب الدينية ، وما حرص عليه كثير من الولاة لتوطيد سلطانهم وتوهين القوى الواعية الرشيدة فى شعوبهم ، من طريق إشاعة الخرافات والأساطير ، واحتضان المذاهب الفاسدة والشعائر الباطلة .

وما كان لى أن أتصور هذه المشاهد على غير صورتها التى فطرها الله عليها . وما كان لى أن أقصدها التماساً للبركة بالتمسح والمناجاة ؛ وإنما أقصدها لأستنطقها ما انطوت عليه من عبر التاريخ ، كما أقرأ ذلك فى صحيفة ، أو أتدبره فى كتاب !

* * *

وأقلتنا السيارة فجر اليوم التالى فى الطريق الذاهب إلى منى ، وهناك على مسيرة بضعة كيلومترات ، يقوم جبل النور شاهقاً منفرداً بين الجبال ، يروى للإنسانية منذ أربعة عشر قرناً إلى أن تقوم الساعة ، تلك

الآية الخالدة التى انبثقت أنوارها فى قلب محمد بن عبد الله ، وهو يتحنث فى غار حراء !

ورقينا الجبل فى مشقة حتى بلغنا قمته ، ثم انحدرنا قرابة خمسين متر فإذا نحن أمام الغار ، حيث كان محمد يقضى الليالى ذوات العدد فى رياضة روحية ، يستغرقه التأمل فى ملكوت السموات والأرض ، والتطهر من نوازع البشرية وهموم الحياة ؛ إذ كانت العناية الإلهية تعده لتلقى الرسالة الكبرى التى أضاء بنورها الخافقان .

واستغرقنى التأمل والاعتبار ، فإذا أنا روح يحوم حول قمة الجبل ثم يحلق على باب الغار ، وإذا أضواء تنعكس على مشاعرى منبعثة من جوف الغار فتأخذ بالأبصار والقلوب ، وإذا بى أكاد أسمع صوتاً رفيقاً يقول : اقرأ . . .

فيجاوبه صوت آخر فيه دهشة وصدق : ما أنا بقارئ !

وأكاد أسمع صوت غطة بين جسمين ، يتكرر بعدها الأمر والجواب . . .

حدث ذلك ثلاث مرات ، كأن قد سمعت بعدها ذلك الصوت الرفيق يقول :

« اقْرَأْ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ [١] خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ [٢] اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ [٣] الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ [٤] عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ [٥] »[1]

---

(١) سورة العلق ، وآياتها ١٩ وهى أول ما نزل من القرآن .

مقابر المعلاة

قال صاحبي : حسبك . والآن إلى أين تريد أن تذهب؟

قلت : إلى أم المؤمنين خديجة بنت خويلد . تلك الزوج الرءوم التى صرف إليها محمد وقد أخذته حمى الوحى ، فهو يرجف من خشية إشفاق ، ثم يدخل عليها وهو يقول : زملونى . . زملونى !

فتتلقاه خديجة حانية مواسية مشجعة . . .

فيقول : لقد خشيت على نفسى !

فتقول له : كلا ، والله لا يخزيك الله أبدا ؛ إنك لتصل الرحم ، تحمل الكلّ ، وتكسب المعدوم ، وتكرم الضيف ، وتعين على نوائب الحق .

قال صاحبي : إذن إلى مقبرة المعلاة .

وتقع هذه المقبرة عند مدخل مكة من جهة « الحجون » ذلك الجبل الذى ذكره عمرو بن الحارث الجرهمى فى قصيدته المشهورة ، وقد وقف يبكى مجد قومه « جرهم » إذ كانت لهم السيادة على البلد الحرام ، فأدالهم عنها « خزاعة » وأجلتهم إلى اليمن .

وقف عمرو بن الحارث الجرهمى يقول من قصيدته ، وقد حيل بينه وبين دخول مكة :

وقائلة والدمع سكب مبادر ... وقد شرقت بالدمع منها المحاجر
كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا ... أنيس ولم يسمر بمكة سامر
فقلت لها ، والقلب منى كأنما ... يلجلجه بين الجناحين طائر
بلى ، نحن كنا أهلها فأبادنا ... صروف الليالى والجدود العواثر

وكانت مقبرة المعلاة ولاتزال — مثوى لموتى أهل مكة منذ الجاهلية

حتى الآن . فهذا قبر عبد المطلب جد الرسول (١) . وهذا قبر أبي طالب عمه الذى حماه ونصره حين افتقد الحماية والنصر . وهذا قبر خديجة بنت خويلد ، التى فقدها الرسول وفقد عمه أبا طالب فى عام واحد سماه عام الحزن ، والتى لم يتزوج غيرها حتى لحقت بالرفيق الأعلى ، وظل بعد موتها وفياً لذكراها أيما وفاء ، حتى قالت عائشة إنها لم تجد فى نفسها غيرة من أحد من نساء النبي ما وجدت من ذكره خديجة . وقد استبدت هذه الغيرة بعائشة ذات مرة فقالت تراجع الرسول :

— هل كانت **إلا** عجوزاً أبدلك الله خيراً منها ؟

قال : لا ، لم يبدلنى الله خيراً منها . صدقتنى إذ كذبنى الناس ، ونصرتنى إذ خذلنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء !

. . . وهذا قبر أسماء بنت أبى بكر . تلك التى كان لها فى تاريخ الهجرة — وهى جويرية صغيرة — شأن لا يغفل ، وذكر لا ينسى . . .

أليست هى التى كانت تخرج فى جنح الظلام كل ليلة ، تحمل الطعام إلى أبيها وإلى الرسول فى مخبئهما بغار ثور ؟

ثم أليست هى التى سألها أبو جهل ، وهو مغيظ محنق ، عن أبيها

---

(١) للعالم الجليل الأستاذ حمد الجاسر تعقيب نشره بمجلة منبر الإسلام بالعدد ٩ السنة ١٨ على ما ذكره الدكتور هيكل فى كتابه « فى منزل الوحى » وما جاء فى كتابنا « فى أرض المعجزات » ينفى فيه وجود قبور عبد المطلب وأبى طالب والسيدة خديجة بالمعلاة . ويحيل فى ذلك إلى كتاب « البحر العميق فى الحج والعمرة إلى بيت الله العتيق » لابن الضياء الحنفى . وتحقيق الأماكن التاريخية فى الأرض المقدسة جدير بعناية علماء التاريخ والآثار ، وللأستاذ حمد الجاسر والمرحوم الدكتور عبد الوهاب عزام جهود مشكورة فى ارتياد هذا الميدان نرجو أن تتصل أسبابها وتلتقى معها جهود الغيورين على هذا التراث الدينى والقومى .

ذهب ، فلما أجابته : لا أدرى . . . لطمها على وجهها لطمة أطارت لها وأسالت من أذنها الدماء ؟

بلى ، وإن لها فى تاريخ الإسلام والبطولة العربية شأناً لا يغفل ، كراً لا ينسى . . .

أليست هى التى دخل عليها ابنها عبد الله بن الزبير ، والحرب مستعرة ه وبين بنى أمية ، يتعرف صبرها على فقده فيقول :

ــ يا أمه ، خذلنى الناس حتى أهلى وولدى ، ولم يبق معى إلا قليل . د أعطانى القوم ما أردت من الدنيا ، فماذا ترين ؟

فتجيبه فى غير ما تردد :

ــ أرى أن تخرج إلى القتال ما دمت تعتقد أنك على الحق ؛ فوالله ضربة بسيف فى عز ، أحب إلىّ من ضربة بسوط فى ذل !

فيقول : ولكنى أخشى أن يمثلوا بى بعد موتى . . .

فتقول : إن الشاة المذبوحة لا يؤلمها السلخ !

. . . بلى ، وهذا قبر الشهيد عبد الله بن الزبير !

إلى دار الهجرة

وانطلقت بنا السيارة إلى جدة بعد الغروب ، وكأنها تحمل أجساد قد انخلعت عن قلوبها وأرواحها المتعلقة هنالك بأستار الكعبة !

ولكن طائفاً من النشوة والسرور رد إلينا هذه القلوب المنخلعة وتلك الأرواح الهائمة ، فإذا هي تتواثب بنا في غبطة واشتياق ، تكاد تسبق السيارة في انطلاقها البعيد .

ألسنا نغادر مكة في طريقنا إلى مدينة الرسول ؟

وتناولنا العشاء في فندق البساتين بجدة ، ثم تزودنا بشيء من الطعام والماء المثلج ، وبدأنا رحلتنا قبيل منتصف الليل . وكان الجو منعشاً تغمره أنسام البحر الرطبة الباردة ، بساماً تتراقص فيه أشعة القمر الفضية الحالمة . وقد بدت الصحراء عن يمين وشمال ، وعلى مد البصر البعيد ، طروبة مزهوة بتلك المواكب الراكبة والراجلة ، والتي تسري في دروبها آمنة مطمئنة ، يحدوها الشوق إلى زيارة مسجد النبي ومقامه الشريف .

وتمثلت في مسراي هذا قوافل الحجاج منذ عشرات السنين ، وهي تنساب على ظهور الإبل فتبدد وحشة الليل ورهبة الصحراء بالأهازيج والأغاريد ؛ إنها مواكب أفراح قدسية تغمر القلوب بفيض زاخر من الأشواق والمشاعر الجميلة وتعمر الصحراء بمشاهد الأنس والبهجة والانتشاء .

وتمثلت إلى جانب هذه الصورة الباسمة الجميلة ، صوراً أخرى لما كان يخامر النفوس من القلق والحذر والإشفاق ، وما كان يصيبها من غوائل الغدر والعدوان . . . .

قلت : لئن حرمنا العهد الجديد بمواكب السيارات المتدفقة في عجلة وإندفاع لا تلوي على شيء ، الاستمتاع بتلك الصورة الجميلة الخافقة

بألوان النشوة وأصداء الأهازيج والأغاريد ؛ لقد عوضنا عن ذلك أمنا تغمر ظلاله الأرجاء ، وتسيطر روحه حتى على مفاوز الصحراء .

على أن السيارة لم تكد تمضى بنا فى طريقها البعيد ونحن نتمثل هذه الذكريات ، حتى أدرنا جهاز الإذاعة فإذا بنا نعيش فجأة فى جو تلك الأفراح القدسية ، التى تغمر القلب بفيض زاخر من الأشواق والمشاعر العلوية الجميلة . . .

إنها أم كلثوم تحيى ليلتنا هذه فى مطلع الرحلة المباركة بأنشودتها الروحية الخالدة :

ولد الهدى فالكائنات ضياء وفم الزمان تبسم وثنـــاء !

لقد كانت تحية السماء تبارك بها خطواتنا المشوقة الهائمة ، أرسلتها على لهاة معجزة الفن أم كلثوم ، وانطلقت ترددها الإذاعة فتتردد أصداؤها فى بطون الأودية ومعارج الجبال . . .

آثار موقعة بدر

ومررنا بقرية بدر التى شهدت فى فجر الإسلام أول موقعة بين المسلمين ومشركى مكة . فطلبنا من سائق السيارة أن يعرج بنا على مكان الموقعة ، وهو بين كثبان من الرمل إلى يسار الطريق الذاهب إلى المدينة ، بينه وبين المدينة نحو ٧٠ كيلو متراً .

وهناك وقفنا نشاهد الآثار التى خلفتها تلك الموقعة الخالدة ، ونستشعر ما لهذه الأرض من مجادة وقداسة ؛ إذ كانت مسرحاً اختلطت فيه الملائكة بالأبطال المغاوير من أصحاب محمد :

« إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلاَئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ، سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ ، فَاضْرِبُوا

فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ »[١].

إن الأمر بين محمد وهؤلاء المشركين الذين أخرجوه وصحبه من ديارهم بعد أن ائتمروا به ليقتلوه ، وبعد أن لجوا فى إيذاء المستضعفين من المسلمين الذين ظلوا بمكة . . . لا بد له من أن يبلغ غايته فى جولة رادعة !

وترصد المسلمون بالمدينة قافلة من قوافل قريش ، كانت عائدة من الشام تحمل تجارة قدر ثمنها بخمسين ألف دينار ، وكان على القافلة أبو سفيان وأربعون رجلاً .

وما إن بلغ الخبر أبا سفيان قبل وصوله إلى المدينة ، حتى بعث رجلاً يستنفر أهل مكة لحماية تجارتهم . ووصل الرجل إلى مكة وقد قطع أذنىْ بعيره وجدع أنفه ، وشق قميصه من قُبل ومن دبر وهو يصيح :

— يا معشر قريش . . . اللطيمة ، اللطيمة[٢] أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه لا أرى أن تدركوها . . . الغوث ، الغوث !

وتداعى الناس من كل مكان فلم يبق فى مكة قادر على القتال إلا حمل سلاحه ، وانطلقوا يقودهم أبو جهل لملاقاة محمد وأصحابه .

وتحول ميزان الموقف . . .

إن محمدا وأصحابه الذين خرجوا للقتال وعدتهم بضعة عشر وثلاثمئة ، لن يكون أمامهم أبو سفيان وصحبه الأربعون وحدهم ، بل إن قريشا قد أمدت هؤلاء بألف مقاتل . . . فماذا هم فاعلون ؟

واستشار محمد أصحابه . . .

فقال المقداد بن عمر :

— يا رسول الله ، امض لما أراك الله فنحن معك . والله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : « إذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون »

---

(١) الآية ١٢ سورة الأنفال . (٢) المال والتجارة .

ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون !

وعاد محمد فقال :

— أشيروا علىّ أيها الناس . . .

وكان يعنى الأنصار الذين بايعوه يوم العقبة على أن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأبناءهم ونساءهم . . .

فالتفت سعد بن معاذ زعيم الأنصار إلى محمد وقال :

— لكأنك تريدنا يا رسولَ الله ؟

قال : أجل .

قال سعد : لقد آمنا بك وصدقناك ، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق ، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض لما أردت فنحن معك . فوالذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك وما تخلف منا رجل واحد ، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غداً ؛ إنا لصُبرٌ فى الحرب ، صدق فى اللقاء ؛ لعل الله يريك منا ما تقر به عينك. فسر بنا على بركة الله .

فأشرق وجه محمد — صلى الله عليه وسلم . . .

وقال لأصحابه :

— سيروا وأبشروا ؛ فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين[1] ، والله لكأنى الآن أنظر إلى مصارع القوم . . .

---

(١) كان الله قد وعد رسوله إحدى الطائفتين : جيش قريش ، أو القافلة . . . فلما أفلتت القافلة صارت الطائفة التى وعد بها الرسول هى جيش قريش . ولكن البعض عارض وقال إنما خرجنا لنغنم الإبل وما تحمل ولم نخرج للقتال إذ لم نستعد له . فغضب النبى وجرت بينه وبين أصحابه هذه المشاورة التى انتهت بالإصرار على لقاء العدو ، ونزلت الملائكة تقاتل فى صفوف المسلمين . . .

«وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ ، وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ ، وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ [٧] لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ [٨] إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ [٩] وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلَّا بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ، وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللهِ ، إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ [١٠] »[١] .

. . . وهنا على هذه الأرض من قرية بدر التى مررنا بها فى طريقنا إلى المدينة ، دارت المعركة بين ثلاثمئة وبضعة عشر رجلا من المسلمين ، وألف من المشركين . . .

هنا العدوة الدنيا حيث نزل محمد وأصحابه ، وهناك العدوة القصوى حيث نزلت قريش . وبينهما ، ساحة المعركة الرهيبة وقد تلاقى فيها الجمعان ...

وهنا فى هذا المكان كان يقوم عريش[٢] يأوى إليه الرسول — صلى الله عليه وسلم — وفى هذا العريش وقف مستقبلا القبلة وقد اشتد به القلق ، رافعاً يديه فى ضراعة وابتهال وهو يقول :

— اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تحاول أن تكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى . اللهم إن تهلك هذه العصابة[٣] اليوم لا تعبد».

ثم خفق خفقة من نعاس انتبه بعدها وقد علاه البشر ، وخرج إلى الناس يحرضهم على القتال ويقول :

---

(١) سورة الأنفال . (٢) بناء كالخيمة . (٣) جماعة المسلمين .

— والذى نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة !

واندفعت جموع المسلمين على قلتها هاتفة : أحد ، أحد . . .

ورأى بلال غريمه أمية بن خلف الذى كان ينزل به فى مكة أشد العذاب ليفتنه عن دينه ؛ فصاح به : أمية رأس الكفر ، لا نجوتُ إن نجا ! وحمل عليه فقتله . . .

وكذلك قتل فى هذه الموقعة أبو جهل وكثير من زعماء قريش الذين كانوا حربا على الإسلام والمسلمين ، وأسر المسلمون خمسين من المشركين . . .

وعاد الرسول إلى المدينة ، وفرق الأسرى بين أصحابه وقال لهم : استوصوا بهم خيرا . . .

ثم استشار أصحابه فى أمر هؤلاء الأسرى . . .

فقال أبو بكر : يا رسول الله ، بأبى أنت وأمى ، قومك فيهم الآباء والأبناء والعمومة وبنو العم والإخوان . وأبعدهم منك قريب . فامنن عليهم — منّ الله عليك — أو فادِهم[1] يستنقذهم الله بك من النار ، فتأخذ منهم ما أخذت قوة للمسلمين ، فلعل الله أن يقبل بقلوبهم . . .

وقال عمر : يا رسول الله ، هم أعداء الله ، كذبوك وقاتلوك وأخرجوك ، اضرب أعناقهم ؛ هم رءوس الكفر وأئمة الضلالة ، يوطئ الله بهم الإسلام ويذل بهم أهل الشرك . . .

وقام الرسول — صلى الله عليه وسلم — فدخل قبته فمكث فيها ساعة ثم خرج والناس مختلفون فى أمر الأسرى ، بعضهم يرى رأى أبى بكر ، والبعض الآخر يرى رأى عمر . . .

وضرب الرسول مثلاً فقال :

---

(١) أطلقهم مقابل فدية .

أما أبو بكر فمثله كمثل ميكال ينزل برضاء الله وعفوه عن عباده . ومثله فى الأنبياء كمثل إبراهيم . كان ألين على قومه من العسل ؛ قدمه قومه إلى النار وطرحوه فيها فما زاد على أن قال :

« أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ »(١) .

وأن قال : « فَمَنْ تَبِعَنِى فَإِنَّهُ مِنى وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رحيمٌ »(٢) . ومثله فى الأنبياء كمثل عيسى إذ يقول « إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ »(٣) .

— ومثل عمر فى الملائكة كمثل جبريل ينزل بالسخط من الله والنقمة على أعداء الله . ومثله فى الأنبياء كمثل نوح إذ يقول :

« رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا »(٤) .

وكمثل موسى إذ يقول : « رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ واشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ »(٥) .

وتشاور المسلمون فى الأمر : القتل أم الفداء ؟ !

وانتهى الرأى إلى قبول الفداء . . .

وكان قد قتل من الأسرى اثنان هما النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط

---

(١) سورة الأنبياء ، الآية ٦٧ .
(٢) من الآية ٣٦ سورة إبراهيم .
(٣) سورة المائدة الآية ١١٨ .
(٤) سورة نوح ، الآية ٢٦ .
(٥) سورة يونس ، الآية ٨٨ .

قبل أن يتخذ المسلمون قرارهم هذا . وسلمت أعناق الأسرى بالفداء ، إلا واحدا أطلق سراحه بغير فداء هو الشاعر أبو عزة عمرو بن عبدالله الجمحى ، فقد تقدم إلى الرسول يقول :

— يا محمد ، لى خمس بنات ليس لهن شىء فتصدّق بى عليهن !

فأمنه الرسول وأطلقه بغير فداء . . .

وكان من بين الأسرى سهيل بن عمرو رسول قريش فى معاهدة الحديبية وهو الذى اشتد فى صياغة مواد المعاهدة شدة أوغرت صدور المسلمين .

فلما وقع سهيل بن عمرو أسيراً فى موقعة بدر ، وقدم من مكة من يؤدى عنه الفداء ، عز على عمر بن الخطاب أن ينجو سهيل دون أن يصيبه أى أذى . فقال للرسول :

— دعنى أنزع ثنيتىْ[1] سهيل بن عمرو ويدلع[2] لسانه فلا يقوم عليك خطيباً فى موطن أبداً . . .

فقال الرسول — صلى الله عليه وسلم :

— لا أمثل به فيمثل الله بى وإن كنت نبيا !

هذه صور وذكريات أوحى بها وقوفنا فى ميدان المعركة الخالدة ، معركة بدر ، ونحن نرى أمامنا فى هذا المكان مقابر الشهداء . . .

---

(١) الثنايا : أسنان مقدم الفم .

(٢) يخرج من فمه .

آبار على وبئر عروة

وقبل أن نبلغ المدينة بتسعة كيلومترات نزلنا بآبار على ، وبالقرب منها موقع « ذى الحليفة » ميقات الإحرام لأهل المدينة .

ثم انطلقت بنا السيارة حتى بلغنا بئر عروة على بعد بضعة كيلو مترات من المدينة . أنشأها عروة بن الزبير وأقام إلى جوارها قصرا منيفاً . وكانت البر ولا تزال مورداً عذباً ومناخاً جميلاً للقوافل المارة من هذا الطريق ، لا يمر منه أحد إلا استقى من مائها العذب .

ولم يبق الآن شيء من آثار قصر عروة ، ولكن البئر ما زالت تمد الواردين بمائها الفرات . وإلى جانبها بعض المقاهى التى تمتلىء فى ليالى الصيف بالسمار .

وفى بئر عروة يقول الشاعر السرى بن عبد الرحمن الأنصارى :

كفنونى إن مت فى درع أروى ... واستقوا لى من بئر عروة مائى
سخنة فى الشتاء باردة الصيف ... . . سراج فى الليلة الظلماء

. . . ثم ها نحن أولاء على قاد أميال من مدينة الرسول ، تطالعنا ضواحيها ريانة باسمة ، وها هى ذى قلوبنا تخفق بالشوق والحنين ، ومآقينا تسبل بدموع الفرح والإشفاق . . .

ثم ها هى ذى المدينة المنورة تبدو من بعيد ، فتنطلق الألسنة بالصلاة والسلام على من بعثه الله رحمة للعالمين .

فى المدينة المنورة

وتنطلق السيارة فترقى بنا طريقاً وعراً بين الصخور البركانية ، إنها « الحرةُ » التى تشرف على المدينة من الجنوب . ثم تنحدر بنا فإذا نحن فى المدينة المنورة يغمرنا جوها الباسم وأنفاسها العطرة ، وقد تطلعت قلوبنا نحو منائر الحرم وقبته الخضراء !

وأحسست بكثير من الحرج والحياء ونحن نخترق بالسيارة طرقات المدينة ، فما كان ينبغى أن ندخلها إلا راجلين . . .

وتذكرت الإمام مالكا ، وقد كان — رضى الله عنه — لا يركب بالمدينة دابة قط ، وكان يقول :

— أخشى أن يقع حافرها على محل مشى فيه رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم !

وقصدنا إلى الفندق وحططنا رحالنا . ثم أخذنا زينتنا تأهباً لزيارة المسجد النبوى ، والتشرف بالسلام على صاحب الرسالة فى مقامه العظيم .

وكانت خطواتنا إلى المسجد خفيفة الوطء خاشعة الحركة . فعلى هذه الأرض سارت أقدام الرسول وصحبه من المهاجرين والأنصار . وإنى لأكاد أحس هذه الأرض تتشقق فتنبعث منها أطياف الذكريات البعيدة ، فإذا « طيبة » فى يوم عيد بهيج ، وقد انتفضت عن رجالها ونسائها وأطفالها ، فى مواكب تموج بقعقعة السلاح وأغاريد الفرح ونشوة النصر . وهى تحف بمحمد وقد أردف خلفه أبا بكر وأرخى لناقته الزمام ، فكان لا يمر بدار من دورها إلا صاح أهلها وهم يتعلقون بخطام الناقة :

— يا رسول الله ، هلم إلى القوة والمنعة ، والعز والثروة . والعدد والعدة .

فيقول : خيراً ، بارك الله عليك . خلوا سبيل الناقة فإنها مأمورة .

فى المسجد النبوى

. . .وظللت أتابع خطاى فى طريقى إلى الحرم النبوى وأنا أقول :

— « باسم الله لاقوة إلا بالله . رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً . حسبى الله آمنت بالله ، توكلت على الله » .

ذلك من آداب الزيارة — كما يقول الرسول — وإنى لأطمع إذ أتأسى به فى هذا المقام ، أن يتغمدنى الله بفضله فيكل بى سبعين ألف ملك يستغفرون لى ، وأن يقبل علىّ — سبحانه بوجهه الكريم .

حتى إذا ولجت باب المسجد النبوى ، وقفت أستجمع مشاعرى وأمسك أنفاسى ، وأنا أتأهب لمواجهة أنوار النبوة التى أضاء بها الكون ، منبعثة من جثمان طاهر يحتويه هذا المقام !

ودخلت المسجد فأديت الصلاة فى الروضة الشريفة . وتذوقت فى صلاتى هذه بين يدى الحى القيوم الذى تعنو لعظمته الوجوه ، أسرار قوله — صلى الله عليه وسلم :

— « ما بين بيتى ومنبرى روضة من رياض الجنة » .

ثم أقبلت على المقام فى شوق طاغ وقلب مشبوب . إنه مقام الحب والرحمة والهداية والنور . فما استفتحت بالسلام حتى عرتنى هزة عقدت لسانى عن القول ، وأطلقت مآقىّ بالدموع . . .

أى لسان يستطيع أن يفصح فى هذا المقام ، وأى بيان يستطيع أن يبين !

وعدت أستجمع مشاعرى وأنفسك أنفاسى ، وأنا أواجه أنوار النبوة التى أضاء بها الكون ، منبعثة من جثمان طاهر يحتويه هذا المقام . . .

ثم توجهت إليه فى مقامه الكريم ، أحييه وأناجيه :

— السلام عليك يا نبى الله .

السلام عليك يا حبيب الله .
السلام عليك يا صفوة خلق الله .
أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ولا معبود بحق سواه .
وأشهد أنك عبده ورسوله . بلغت الرسالة ، وأديت الأمانة ، ونصحت الأمة ، وجاهدت فى سبيل الله .

ثم خطوت إلى اليمين أواجه صاحبيه أبا بكر وعمر ، وهما ينعمان بجوار الرسول فى مثواه . كما نعما بصحبته فى السراء والضراء فى دنياه . فألقيت التحية ، وذكرت مواقفهما الخالدة فى تأييد دعوه الله ، وبلائهما الصادق فى نصرة رسوله . ثم دعوت لهما بما هما أهله من حسن المثوبة وعظيم الجزاء .

عمارة الحرم النبوى

حين قدم الرسول — صلى الله عليه وسلم — إلى المدينة ، كان أول ما شغل به هو إقامة مسجده هذا . وكان يعمل فيه بيده ، حثا للصحابة على المشاركة فى البناء . وكان إذا اعترضه أحد يريد أن يحمل عنه قال له :
— اذهب فخذ غيرها ، فلست بأفقر إلى الله منى !

ويهبّ كبار الصحابة للمشاركة فى العمل وهم يرتجزون :

لئن قعدنا والنبى يعمل
ذاك إذن للعمل المضلل

وقام المسجد إذ ذاك جدرانه من اللبن . وأعمدته من جذوع النخل ، وسقفه من الجريد . ولكنه كان فى بساطته تلك آية الآيات فى روحه ، وفيمن يضم من أئمة الهدى وأعلام الجهاد . . .
وتطورت عمارة الحرم النبوى ، فزاد فيه عمر وعثمان . وأضيفت إليه

حجرة النبي — صلى الله عليه وسلم — التي دفن فيها ، على عهد عمر بن عبد العزيز . وزاد فيه بعض الخلفاء والملوك وجددوا عمارته ، حتى كانت العمارة الحالية التي تمت يوم ٦ ربيع الأول سنة ١٣٧٥ . وقد سعدت بالمشاركة في هذا العمل المبرور ، إذ كنت قبل تمام البناء أؤدي العمرة وأزور المسجد النبوي ، وكان العمل وقتئذ قائماً في بعض منائر الحرم ، فحملت مع العمال الرمل والحصى ، ورفعت بعض الحجارة إلى مكانها من البناء ، أسوة بما فعله الرسول — صلى الله عليه وسلم — واغتناماً لهذه الفرصة التي قلما يجود بها الزمان . . .

قال صاحبي : هل أتاك نبأ العمارة التي أحدثها نور الدين بن زنكي في الحجرة النبوية ؟

قلت : حدثني بها . . .

قال : كان نور الدين مشغولا بحرب الصليبيين في أواسط القرن السادس للهجرة ، وإنه لفي ذات ليلة إذ رأى في منامه رؤيا أفزعته ؛ رأى النبي — صلى الله عليه وسلم — يشير إلى رجلين أشقرين وهو يقول :

— أنجدني ، أنقذني من هذين ؟

رأى هذه الرؤيا ثلاث مرات في ليلته تلك . فأرسل في طلب وزيره جمال الدين الموصلي ، وكان معروفاً بالتقوى والصلاح ، وقص عليه رؤياه

فقال الوزير : وما قعودك ؟ هذا أمر حدث في مدينة الرسول — صلى الله عليه وسلم — ليس له غيرك . . .

وما طلعت الشمس حتى كان نور الدين في طريقه إلى المدينة هو ووزيره ، ومعهما ألف راحلة . حتى إذا بلغها بعد مسيرة ستة عشر يوماً قصد إلى المسجد وصلى في الروضة ، ثم استدعى أهل المدينة فوزع عليهم ما كانت تحمل القوافل من أموال وأرزاق .

ثم قال : أبقى أحد لم يأخذ حظه ؟

قالوا : لم يبق إلا رجلان من أهل الأندلس صالحان غنيان . لا يأخذان من أحد شيئاً . ويكثران الصدقة على الخاويج .

قال : على بهما .

وجيء بالرجلين فرأى فيهما شبهاً من ذينك اللذين رآهما فى المنام . . .

ولكنهما كانا فى حديثهما مثالا للتقوى والصلاح . وإن أهل المدينة ليشهدون بأنهما يصومان الدهر ، ويلازمان الصلاة فى الروضة ، ويكثران من زيارة الحجرة النبوية والبقيع وبقية المشاهد الأخرى . ولا يردان لسائل حاجة .

على أن ذلك كله لم يبدد ما وقر فى نفس نور الدين من وساوس وشكوك . فقصد إلى دارهما فرأى فيها مالا كثيراً . وأخذ يجوس خلال الدار ، ثم رفع حصيرا فى إحدى الغرف فإذا تحته سرداب يتجه صوب الحجرة النبوية !

واضطربت المدينة حين بلغها النبأ . والناس بين مصدق ومكذب . . .

ولكن الرجلين — وقد برح بهما الضرب — اعترفا لنور الدين بالسر الخطير . . .

لقد أوفدهما الصليبيون فى زى حجاج المغاربة ، وأمدوهما بأموال طائلة للاحتيال على سرقة جثمان الرسول !

فأمر نور الدين فضربت عنقاهما . ثم عمد إلى الحجرة النبوية فحفر حولها خندقاً عظيما حتى بلغ منابع الماء . ثم صب الرصاص حتى امتلأ الخندق وصار منه سور متين لا تنفذ إليه يد آثمة ، أو تنال منه يد الزمان .

أطياف الذكريات

وسهرت ليلتى الأولى بالمدينة ، وكأن الوحى فيها لم ينقطع ونحن إلى جوار الرسول !

هذه أطياف الذكريات تخفق حولى صاعدة هابطة ، تصل ما بين الأرض والسماء . . .

وهذه صور الماضى تتواثب أمامى حية نابضة ، فإذا أنا أعيش فى أعماق التاريخ البعيد .

وهذا محمد وقد بركت ناقته حيث شاء الله لها أن تبرك ، وهذا هو ذا يقيم مسجده وبيته ، ويلحق بهما مأوى لأهل الصُّفة من الضعفة والفقراء .

وها هم أولاء الأنصار من الأوس والخزرج يستبقون الحفاوة والإيثار على أروع صورة شهدتها الإنسانية ، فينزلون المهاجرين فى دورهم ، ويقاسمونهم أموالهم . بل إن أحدهم تكون له أكثر من زوجة ، فيطلق أجملهن وآثرهن عنده ليزوجها من أخيه المهاجر فى سبيل الله !

وها هو ذا محمد يبارك هذه الرابطة الروحية التى صاغت للبشرية أروع نماذج الإخاء والتضحية والوفاء ، فيجعل من كل اثنين من المهاجرين والأنصار . أخوين لهما كل حقوق الأنساب والدماء . . .

ثم ها هى « طيبة » تلك البلدة المغمورة الثاوية فى قلب الصحراء ، تشهد ميلاد الإنسانية فى تاريخها المشرق الرشيد . وتتدفق منها موجات الهداية والنور والخير والجمال ، فتبدد غياهب الظلم والظلام . وتطهر البشرية من أرجاس العبودية لغير الله ، وتشرع للمجتمع الإنسانى تقاليد خالدة من التكافل والتراحم والعدل والمساواة .

. . . وانطلق أذان الفجر من مآذن الحرم ، يشق سكون الليل ويوقظ لوباً لا تنام !

وتذكرت بلالا فى موقفه ذاك على سطح الحرم ، وقد ارتفع صوته الجميل بالتكبير والتهليل . وما خفت هذا الصوت يوماً حتى وهو يعانى سكرات الموت على رمضاء مكة ، وقد شد وثاقه بالحبال ، وألقيت على صدره الخافق بالتوحيد قطع الجبال !

وأقيمت الصلاة ؛ فكأنما كنا نصلى مؤتمين بالرسول فهو بيننا حاضر بجسمه الطاهر ، وإن روحه لتغمر المسجد وتعمر القلوب . وهل فى حضرة الرسول يتقدم غيره من إمام ؟!

ثم انصرفنا مع طلوع الشمس إلى الفندق ، ريثما نتناول بعض الطعام والشراب ونلتمس قسطاً من الراحة . وعدنا إلى منطقة الحرم لزيارة بعض المعالم التى تحيط به ، والتى تحمل أرواحاً من تلك الذكريات البعيدة الخالدة . . .

فهذه دار أبى أيوب الأنصارى ، التى أقام بها الرسول لأول عهده بالمدينة حتى أتم بناء بيته فى المكان الذى يثوى فيه جثمانه الطاهر . وها هو ذا أبو أيوب الأنصارى يحدثنا عن ذكرياته فيقول :

— لما نزل على رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فى بيتى . نزل فى السفل وأنا وأم أيوب فى العلو ، فقلت له :

يا نبى الله ، بأبى أنت وأمى ، إنى لأكره وأعظم أن أكون فوقك وتكون تحتى . فاظهر أنت فكن فى العلو ونزل نحن فنكون فى السفل .

فقال : يا أبا أيوب ، إنه أرفق بنا وبمن يغشانا أن نكون فى سفل البيت .

ثم هذه هى ذى دار أبى بكر ، وهذه دار عثمان . . .

نعم هذه دار عثمان التى شهدت أفجع صورة لمصرع هذا الإمام الشهيد ، والتى انبعثت منها الشرارة الأولى التى أشعلت نار الفتنة الكبرى فى تاريخ الإسلام والمسلمين . . .

جنة البقيع

ثم خرجنا إلى ظاهر المدينة لزيارة « البقيع » حيث قبور عشرة آلاف من الصحابة والشهداء والأئمة وأهل بيت النبوة . أولئك الذين سطروا بدمائهم وأرواحهم أروع آيات البطولة والجهاد والاستشهاد فى سبيل الله ، وأقاموا بتضحياتهم الفذة وإيمانهم العميق دعائم الدين الحنيف .

وفى طريقنا إلى البقيع مررنا ببعض جوانب السور العظيم الذى كان يحيط بالمدينة ، فيحميها من عدوان البدو وهجماتهم المتكررة على أهلها .

وكان أول من أقام سوراً حول المدينة الملك عضد الدولة بن بويه عام ٣٦٠ هـ ، ولم يبق لهذا السور أثر . وكذلك السور الذى أقامه جمال الدين الجواد الأصبهانى عام ٥٤٠ هـ .

أما السور الذى بقيت آثاره حتى الآن فقد أنشأه سليمان القانونى عام ٩٤٨ هـ وكان يبلغ طوله أربعة آلاف ذراع ، وبلغت نفقاته مئة ألف دينار ذهباً ، عدا ما استخدمه من مواد البناء التى حملها من مصر ، وآلاف الأرادب من القمح والأرز والفول والشعير وغيرها من مواد التموين . وقد استغرق بناء هذا السور ثمانية أعوام .

ثم طالعنا البقيع خارج المدينة ، فدخلنا إليه فى هيبة وخشوع . وتذكرت وأنا أخطو فى أرضه الطاهرة خطواتى الأولى ، محمداً — صلى الله عليه وسلم — وهو يودع يوماً بعد يوم من يستشهد من أصحابه وأنصاره . ثم وهو يتردد على هذا المكان بين الفينة والفينة للذكرى والترحم على ساكنيه ،

وأذكره حين بدأ وجعه الذى مات فيه يخرج إلى البقيع فى جوف الليل ومعه غلامه أبو مويهبة ، فيقول له :

— يا أبا مويهبة ، إنى قد أمرت أن أستغفر لأهل هذا البقيع .

ثم يقول — صلى الله عليه وسلم :

— السلام عليكم يا أهل المقابر ، ليهنئ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها ، الآخرة شر من الأولى . . .

ثم يقول لغلامه :

— يا أبا مويهبة ، إنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة ، فخيرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة . . .

قال الغلام : بأبى أنت وأمى ، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ثم الجنة !

قال : لا والله يا أبا مويهبة ، لقد اخترت لقاء ربى والجنة !

ها نحن أولاء فى جنة البقيع . . .

على أنك لا تستطيع أن تتبين قبر واحد من أولئك الصحابة والشهداء والأئمة وأهل البيت ، إلا إذا صحبك الدليل أو « المزوِّر » كما يقولون .

ذلك لأن جميع هذه القبور قد سويت مبانيها ومعالمها بالأرض ، كما سويت مقابر المعلاة فى مكة . وقد نهى الرسول — صلى الله عليه وسلم عن إقامة الأضرحة والقباوبل فوق القبور ، ولكن كان يجدر أن يظل على كل قبر شاهد يحمل اسم صاحبه للذكرى ؛ فليس فى نشدان الذكرى والترحم على الصحابة والشهداء والأئمة وأهل البيت وغيرهم ، ما يتنافى مع ما أوصى به الرسول وشرعه فى زيارة القبور .

إن محمدا حين دفن ولده إبراهيم ، هنا فى البقيع ، سوّى على قبره بيده ثم أعلم بعلامة وقال :

— « إنها لا تضر ولا تنفع ، ولكنها تقر عين الحى ، وإن العبد إذا عمل عملا أحب الله أن يتقنه » .

ذو النورين

. . . هنا يرقد ذو النورين عثمان بن عفان . الخليفة الشهيد ، وأول مهاجر فى الإسلام . والذى جهز جيش العسرة بألف دينار ، فجعل الرسول يقلب هذه الدنانير فى حجره ويقول :

— اللهم ارض عن عثمان فإنى عنه راض . ما ضرّ عثمان ما عمل بعد اليوم !

نعم ، ولقد أصاب الناس فى عهد أبى بكر قحط شديد ، فذهبوا إليه وقالوا :

— يا خليفة رسول الله ، إن السماء لم تمطر ، والأرض لم تنبت ، وقد توقع الناس الهلاك ، فماذا نصنع ؟

قال : انصرفوا واصبروا ، فإنى أرجو ألا تمسوا حتى يفرج الله عنكم ...

فلما كان آخر النهار ، وردت الأنباء بان عيرا لعثمان بن عفان قدمت من الشام وتصبح فى المدينة ، فلما جاءت خرج الناس يتلقونها فإذا هى ألف بعير موسوقة برا وزيتاً وزبيباً . فأناخت عند باب عثمان ، فلما جعل أحمالها فى داره ، جاء التجار فقال لهم :

— ما تريدون ؟

قالوا : إنك لتعلم ما نريد . . . بعنا من هذا الذى وصل إليك ؛ فإنك تعلم حاجة الناس إليه .

فقال عثمان : حباً وكرامة . كم تربحونى على شرائى ؟

قالوا : الدرهم درهمين .

قال : أعطيت زيادة على هذا . . .

قالوا : أربعة دراهم .

قال : أعطيت أكثر . . .

قالوا : نربحك خمسة .

قال : أعطيت أكثر . . .

فقالوا : ما فى المدينة تجار غيرنا . وما سبقنا أحد إليك . فمن الذى أعطاك أكثر مما أعطينا ؟

قال : إن الله قد أعطانى بكل درهم عشرة ، فهل عندكم زيادة ؟

قالوا : لا . . .

قال : فإنى أشهد الله أنى جعلت ما حملت هذه العير صدقة لله على المساكين وفقراء المسلمين !

نعم ، وإنه ذو الذى وحد المسلمين على القرآن يتلونه بلسان قريش ، فلا تتبلبل ألسنتهم ويختلف كتابهم . . .

والذى امتدت فى عهده موجات الدعوة الإسلامية . فشملت بحر الروم وشمالى إفريقية غرباً ، وغمرت أواسط أوربا وآسيا شمالا ، ثم بلغت حدود الهند شرقاً — فى فترة قصيرة من الزمان .

ولكن هذه المآثر المتصلة فى حياة عثمان . وتلك المفاخر التى قال الرسول فى إحداها ما قال ، لم تشفع لعثمان فيما أخذ عليه من إيثار بعض ذوى قرباه بولاية الأمصار ، فاضطغنت عليه القلوب ولم تزن بها بقية من سورة الجاهلية . فنالته سيوفهم غيلة وهو يتلو كتاب الله!

* * *

ثم ها هو ذا قبر الحسن بن على . الذى أصلح الله به بين فئتين واتقى به المسلمون اطراد الفتنة فى عهد معاوية . وبذلك وهب الدولة الإسلامية فترة استقرار تنصرف فيها إلى نشر دعوتها فى الآفاق . . .

وهنا يرقد زين العابدين بن الحسين ، الذى شهد وهو فتى صغير مأساة كربلاء الدامية ، وعاش فى جوها الراعب الرهيب . إنه ليقبل على أبيه وقد علم أنهم مخيرون بين التسليم والموت فيقول :

— ألسنا على الحق ؟

فيجيبه الحسين : بلى ، والذى يرجع إليه العباد .

فيقول الفتى قولته الخالدة :

— يا أبه ، فإذن لا نبالى !

العباس وبيعة العقبة

وهذا قبر العباس بن عبد المطلب . وقد كان له موقفه من الأنصار الذين قدموا يدعون محمدا إلى الهجرة — ولم يكن العباس يومئذ قد أسلم بعد — ولكنه أراد أن يستوثق لابن أخيه فيما هو مقبل عليه ، وأن يطمئن إلى صدق هؤلاء الأنصار فى دعوته وحمايته .

كان ذلك عند العقبة ، وقد وفد على الرسول ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان ليبايعوه البيعة الكبرى ويدعوه للهجرة إلى المدينة . فقال لهم العباس :

— يا أهل يثرب : إن محمدا منا حيث قد علمتم . وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه ، فهو فى عز من قومه ، ومنعة فى بلده ، وقد أبى إلا الانحياز إليكم واللحوق بكم . فإن كنتم ترون أنكم وافون له فيما دعوتموه إليه ، ومانعوه ممن خالفه ، فأنتم وما تحملتم من ذلك . وإن كنتم مسلميه وخاذليه بعد خروجه إليكم فمن الآن فدعوه . . .

قالوا : سمعنا ما قلت ، فتكلم يا رسول الله ، فخذ لنفسك ولربك ما أحببت . . .

فتكلم الرسول . . .

ومد إليه سيد القوم يده وهو يقول :

— بايعنا يا رسول الله ، فنحن والله أبناء الحروب وأهل الحلقة ، ورثناها كابراً عن كابر !

ولكن أحدهم ينبرى فيقول :

— يا رسول الله ، إن بيننا وبين الرجال — يعنى يهود يثرب — حبالا نحن قاطعوها . فهل عسيت إن نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله ، أن ترجع إلى قومك وتدعنا ؟

فتبسم الرسول وقال :

— بل الدم الدم ، والهدم الهدم . أنتم منى وأنا منكم . أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم .

وهموا بمبايعة الرسول ، ولكن أحدهم يعترضهم قائلا :

— يا معشر الخزرج ، أتعلمون علام تبايعون هذا الرجل ؟

إنكم تبايعونه على حرب الأحمر والأسود من الناس . فإن كنتم ترون أنكم إذا نهكت أموالكم مصيبة ، وأشرافكم قتلا ، أسلمتموه . . . فمن الآن فدعوه ، فإنه والله إن فعلتم خزى الدنيا والآخرة . وإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ، على نهكة الأموال وقتل الأشراف . . فخذوه ، فهو والله خير الدنيا والآخرة . » .

قالوا : نأخذه على مصيبة الأموال وقتل الأشراف .

فمالنا يا رسول الله إن نحن وفينا بذلك ؟

قال : الجنة ! »

* * *

. . . وهذا قبر الإمام مالك . وهنا وهناك قبور جماعة من أهل الفقه والرواية ، منهم عبد الله بن مسعود ، وأبو سعيد الخدرى . . .

وهنا جدث عبد الرحمن بن عوف ، الذى استخلفه عمر فى الصلاة

بالناس على أثر اغتياله . . .

وهذا قبر سعد بن أبى وقاص الذى دان له النصر فى كل ميدان . . .

قال المستشرق الحاج عبد الله برخارت :

— لقد بلغت المدينة من الغنى برفات القديسين العظماء ، ما كاد يفقد معه كل من هؤلاء جلال العناية بذاته ، على حين تكفى بقية من المدفونين بالبقيع لتجعل لأية مدينة إسلامية أعظم الشهرة !

غزوة أحد

وحملتنا السيارة صباح اليوم التالى إلى « أحد » شمالى المدينة بعدة أميال . ذلك الجبل الذى شهد أول رجفة فى الإسلام زلزلت القلوب والأقدام ، واصطرعت فيها قوى الإيمان تقذف بها قلوب المسلمين ، وما تغلى به قلوب المشركين من سورة الحقد والثأر والانتقام . . .

إن المسلمين قد دارت عليهم الدائرة بعد غلبة وانتصار ، فتهاوت أعناقهم وسالت دماؤهم وتفرقت صفوفهم ، حتى انكشف الرسول للعدو بجملة قذائفهم حتى سقط على الأرض تنزف منه الدماء . . .

قال أنس : كسرت رباعية (١) النبى — صلى الله عليه وسلم — يوم أحد ، وشج فى وجهه ، فجعل يسيل الدم على وجهه ، وجعل يمسح الدم وهو يقول : كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم ؟ فأنزل الله تعالى : « لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ »(٢) .

---

(١) الرباعية : السن التى بين الثنية والناب .

(٢) الآية ١٢٨ سورة آل عمران .

قيل : إن عتبة بن أبى وقاص هو الذى كسر رباعية الرسول السفلى وجرح شفته العليا .

وأن سعد بن أبى وقاص قال : ما حرصت على قتل رجل قط ، حرصى على قتل أخى عتبة بن أبى وقاص ، لما صنع برسول الله صلى الله عليه وسلم !

وتلقى أم عمارة الأنصارية ما كان بيدها من السقاء ، وتستل سيفاً فتقف به إلى جوار الرسول تنافح عنه وقد تصايح القوم يطلبون رأسه ، فتثير بموقفها هذا الرائع حمية المنهزمين من الرجال !

وهناك ، كانت هند زوج أبى سفيان تندب قتلى بدر وتلهب مشاعر قومها بنار الحقد والثأر ، فيشتدون فى التقتيل والتمثيل . ولا تطيب نفسها إلا أن تجدع الأنوف والآذان . ثم تبحث عن جثة حمزة قاتل أبيها فى بدر ، فتأبى إلا أن تبقر بطنه وتنزع كبده فتلوكها بين أنيابها فى وحشية حمراء !

. . . ثم يقف محمد على جثمان عمه حمزة وقد مثل به القوم شر تمثيل فيحوقل (١) ويسترجع (٢) فى لوعة طاغية ويقول :

— لن أصاب بمثلك أبداً . وما وقفت موقفاً قط أغيظ لى من هذا ! والله لئن أظهرنا الله عليهم يوماً من الدهر لأمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب . . .

لقد غلب الحزن على رسول الله . حتى استبدت به المشاعر البشرية ، وثارت به حمية الدم فقال ما قال . حتى نزل عليه قوله تعالى :

« وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ ، وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ [١٣٦] وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ

(١) لا حول ولا قوة إلا بالله .
(٢) إنا لله وإنا إليه راجعون .

إلاَّ بالله ، وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ، وَلاَ تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ [١٣٧] إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا والَّذِينَ هم مُحْسِنُونَ [١٣٨] » (١) .

عندئذ تطامنت نفسه ، وهدأت ثائرته ، واستوت على أقطار روحه مشاعر النبوة الصافية . . .

وها نحن أولاء نقف على قبر حمزة سيد الشهداء ، فى بطن الوادى من جانب أحد ، نسترجع تلك الصور المضرجة بأزكى الدماء ، المشرقة بنور الإيمان والتضحية والفداء .

فى وادى العقيق

وانطلقت بنا السيارة إلى وادى العقيق خارج المدينة . هذا الوادى الذى وصفه عمر بن الخطاب بأنه واد مبارك ، والذى كان عامراً فى العصور الإسلامية الأولى بالقصور والبساتين الغناء .

ومررنا بقصر سعيد بن العاص أحد ولاة المدينة فى عهد بنى أمية ، وكان رجلا مشهوراً بالكرم الذى تضرب به الأمثال . وهذا القصر هو الأثر الوحيد الباقى من تلك العصور البعيدة ، وقد تهدمت بعض جوانبه . ولكن الزائر يستطيع أن يلمح من خلال أطلاله صوراً لفن العماره فى ذلك العهد .

وانطلقت بنا السيارة بين البساتين والمزارع والدور الحديثة التى عمرت هذه المنطقة ، حتى بلغنا المكان الذى وقعت فيه غزوة الأحزاب .

وهذا هو الجبل الذى كان يعسكر عليه الرسول — صلى الله عليه وسلم — وقد أقيم مكان المعسكر مسجد صغير ، كما تناثرت عدة مساجد صغيرة أخرى على الهضاب المجاورة حيث كان يعسكر قواد المسلمين .

---

(١) سورة النحل .

غزوة الأحزاب

إنها الغزوة التى ائتلفت فيها قوى اليهود الماكرة . مع قوى مشركى مكة والانتقام من محمد ودعوته .

فقد كان آخر سهم ادخره اليهود لحرب محمد ، هو محاولة تأليب ش وقبائل العرب الأخرى للقضاء عليه فى جولة تعبىء فيها جميع القوى رب ضربتها الحاسمة .

وتزعم هذه المؤامرة حيى بن أخطب وجماعة من زعماء اليهود . فقدموا قريش فى مكة يؤججون نار الحرب والانتقام . وسأل أهل مكة حيى أخطب عن قومه فقال :

— تركتهم بين خيبر والمدينة يترددون حتى تأتوهم فتسيروا معهم إلى - وأصحابه .

قالوا : وبنو قريظة ؟

قال : أقاموا بالمدينة مكراً بمحمد ، حتى تأتوهم فيميلوا معكم . . .

قالوا : يا معشر اليهود . إنكم أهل الكتاب الأول ، وأصحاب العلم بما بحنا نختلف فيه نحن ومحمد . . . أفديننا خير أم دينه ؟

قال زعماء اليهود : بل دينكم خير من دينه . وأنتم أولى بالحق منه وإلى ذلك يشير قوله تعالى (١) :

« أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيباً مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ جِبْتِ (٢) وَالطَّاغُوتِ (٣) وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا هَؤُلَاءِ أَهْدَى

---

(١) سورة النساء .
(٢) اسم صنم .
(٣) الطاغوت : الشيطان ، كل متعد ، كل معبود من دون الله .

مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا سَبِيلاً [٥١] أُولئِكَ لَعَنَهُمُ اللهُ وَمَنْ يَلْ
اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ نَصِيراً [٥٢] » .

واستجابت قريش لدعوة اليهود إلى قتال محمد ، ثم تابع ال
تأليبهم بين القبائل الأخرى ، وخرجت الأحزاب للقتال .

خرجت قريش فى أربعة آلاف جندى وثلاثمئة فارس وأ
راكب على الجمال ، وعلى رأسهم أبو سفيان .

وخرجت بنو فزارة فى جند كثيف ، ومعهم ألف بعير .

وخرجت أشجع ومرة ، كل منهما فى أربعمئة محارب.

وانحازت إليهم عدة قبائل أخرى ، حتى بلغ جيش الأحزاب عد
آلاف مقاتل .

وعلم محمد وصحبه بالأمر . . .

وتداولوا ماذا هم فاعلون لملاقاة هذا العسكر الكثيف ، الذى لا
للمسلمين على حربهم . . .

إنها القارعة !

وقال بعضهم : لاسبيل لملاقاة العدو ، ولا مناص من التحصن داخ
المدينة .

ولكن ماذا يجدى التحصن أمام هذه القوى الساحقة ؟

وأبدى سلمان الفارسى رأيا ؛ إنه ليعلم من أساليب الحرب ما لا ي
للعرب به ، فقد أشار عليهم بأن يحفروا خندقاً حول المدينة . . .

وهنا ، فى هذا المكان من وادى العقيق ، اندفع المسلمون يحف
الخندق الذى أشار به سلمان الفارسى . وكان الرسول — صلى الله
وسلم — بينهم يضرب الأرض ، ويحمل التراب والركام . . .

واستمر هذا العمل الجبار بوسائله البدائية ستة أيام حتى تم

ق ، وأقيمت الحجارة على جانبه من جهة المدينة ليكون حامياً للرماة .
وأقبلت الأحزاب فى عشرة آلاف مقاتل من جهة أحد ، فلم تجد
ا هناك ، فانحدرت إلى المدينة فإذا بها تواجه الخندق . . .
وكان محمد يرابط فى ثلاثة آلاف رجل ، معتصما بجبل « سلع » وقد
ت خيمته الحمراء على المكان الذى شهدنا فيه مسجد الفتح الصغير .
وأسقط فى أيدى الأحزاب فلم يدروا ماذا يفعلون ، وفكر حيى بن
ب زعيم اليهود فى حيلة يحطم بها استحكامات الدفاع التى فاجأ بها
. الأحزاب .
وتسلل إلى المدينة حتى أتى يهود بنى قريظة ، وكان بينهم وبين محمد
وميثاق ، وقال لكعب بن أسد :
ـ ويحك كعب ، جئتك بعز الدهر ، وببحر طام ، وجئتك
ش وبغطفان مع قادتها وسادتها ، وقد عاهدونى وعاقدونى على ألا
وا حتى نستأصل محمدا ومن معه !
ولكن كعب بن أسد قدر الأمر على جميع وجوهه ، وخشى أن
ل الأحزاب فيصيبه هو وقومه البوار والدمار ، لنكثهم العهد الذى
م و بين محمد . . .
وما زال حيى بن أخطب به حتى أقنعه بالانتقاض على محمد ،
ضمام إلى الأحزاب . وكانت طعنة غادرة فى ظهر المسلمين زلزلت
دام والقلوب !

« إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ . وَإِذْ
زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ
لظُّنُونَا [١٠] هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً
شَدِيدًا [١١] وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم

مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُوراً [١٢] وَإِذْ قَا
طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا
وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ
هِيَ بِعَوْرَةٍ إِنْ يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَاراً [١٣] » (١).

واقتحمت الأحزاب الخندق بخيلهم . . .

فبرز لهم على بن أبى طالب فى جماعة من المسلمين يسدون عا
الطريق .

وتقدم عمرو بن عبد ود ينادى :

— من يبارز ؟

فلباه على بن أبى طالب . . .

فأشاح عمرو بوجهه وقال فى كبرياء :

— لم يا ابن أخى ؟ فوالله ما أحب أن أقتلك !

وقال على :

لكنى والله أحب أن أقتلك !

وتبارز الفارسان فى جولة رهيبة . . .

وقتل على غريمه البطل !

وفرت خيل الأحزاب مولية الأدبار . . .

ولكن المعركة لم تنته بعد ، فقد طالت أيام الحصار ، واستم
المناوشات . والأحزاب لا تستطيع أن تنال من محمد وقومه نيلا ي
أحلامها الحمراء . . .

---

(١) سورة الأحزاب .

وكان الرسول قد أنزل نساءه وعمته صفية فى حصن يقال له « فارع » ل معهم حسان بن ثابت . فصعد يهودى إلى الحصن فقالت صفية

— يا حسان ، قم إليه حتى تقتله .

قال : لا ، والله ما ذاك فىّ ، ولو كان فىّ لخرجت مع رسول صلى الله عليه وسلم !

فأخذت صفية سيفه وصعدت فوق الحصن وأطاحت برأس اليهودى ، عادت فقالت لحسان :

— قم فاسلبه [١] ، فإنى لم يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل .

قال : ما لى بسلبه حاجة يا بنت عبد المطلب !

وأسلم نعيم بن مسعود الأشجعى دون أن يعلم به قومه ، وجاء إلى ول — صلى الله عليه وسلم — فقال له الرسول : خذل [٢] عنا . . .

فمضى إلى بنى قريظة . وكان نديماً لهم فقال :

— قد عرفتم محبتى .

قالوا : نعم .

فقال : إن قريشا وغطفان ليست هذه بلادهم ، وإنهم إن رأوا فرصة زوها ، وإلا رجعوا إلى بلادهم ، وتركوكم فى البلاد مع محمد . ولا طاقة به . . .

قالوا : فما ترى ؟

قال : لا تقاتلوا معهم حتى تأخذوا منهم رهناً .

فاقتنعوا برأيه . . .

ثم توجه إلى قريش فقال لهم :

---

(١) خذ ما معه من مال وسلاح . (٢) بث الخذلان فى صفوف الأعداء .

— إن اليهود ندموا على الغدر بمحمد ، فراسلوه فى الرجوع إل
فراسلهم بأنا لا نرضى حتى تبعثوا إلى قريش فتأخذوا منهم رُهناً فأقتل
ثم جاء غطفان وقال لهم مثل ذلك . . .

فلما أصبح أبو سفيان أرسل عكرمة بن أبى جهل إلى بنى قر
يقول لهم :

— إنا قد ضاق بنا المنزل ، ولم نجد مرعى ، فاغدوا للقتال .
نناجز محمدا .

فأجابوا : إن اليوم يوم السبت ، ولا نعمل فيه شيئاً ، ولا بد
من الرهن منكم لئلا تغدروا بنا . . .

فقالت قريش : هذا ما حذركم نعيم !

وأرسلوا إلى بنى قريظة يقولون : إنا لا نعطيكم رهناً ، فإن
أن تخرجوا فافعلوا .

وقالت قريظة : هذا ما أخبرنا نعيم ؟ !

ووقع الخذلان فى صفوف الأحزاب . . .

ثم كانت الليلة الفاصلة ، ليلة هبطت فيها على المسلمين نجدة
جند السماء . . .

فقد عصفت الريح عصفاً شديداً فاقتلعت خيام الأحزاب ، وكف
قدورهم ، وانهالت السماء بالأمطار ، وقصفت بالرعود والبروق . . .

وقال أبو سفيان :

— يا معشر قريش ، والله ما أصبحتم بدار مقام . لقد هلك الكراع
والخف (٢) ، وأخلفتنا بنو قريظة ، ولقينا من شدة الريح ما ترو
فارتحلوا فإنى مرتحل . . .

---

(١) الكراع : طرف الساق ، ويقصد بذلك هلكت الخيل والدوا
(٢) هلك الخف : أى هلكت الإبل .

وانطلقت الأحزاب هاربة لا تلوى على شيء . وأشرقت شمس
باح ، ونظر محمد وأصحابه فإذا ميدان المعركة ليس فيه إلا أشلاء
بام والقدور . . .
وكفى الله المؤمنين القتال !

مسجد القبلتين

ثم عادت بنا السيارة تشق طريقها بين المزارع والبساتين إلى مسجد
بلتين . . .
وكان الرسول إلى ما بعد مقامه بالمدينة سبعة عشر شهراً ، يؤدى الصلاة
تقبلاً بيت المقدس . وأراد اليهود أن يمكروا به ليخرجوه من المدينة ،
د أن حبطت دسائسهم التي حاكوها منذ أول يوم قدم فيه ، فقالوا له :
— إن من سبقك من الرسل ذهبوا إلى بيت المقدس ، وبه كان
امهم . فإن تكن رسولا حقاً فاصنع مثل ما صنعوا ، ولتكن المدينة مقاماً
طاً فى هجرتك بين المسجد الحرام والمسجد الأقصى .
وضاق الرسول بمكرهم هذا ، وظل موزع القلب حائر الفؤاد . حتى
ا كان قائماً يصلى فى هذا المسجد بظاهر المدينة مستقبلاً بيت المقدس ،
ل عليه قوله تعالى :
« قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً
رْضَاهَا ، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ . وَحَيْثُمَا
كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ » .

فتحول الرسول وهو قائم فى صلاته تلك من المسجد الأقصى المسجد الحرام . . .

مسجد قباء

ثم انطلقت بنا السيارة إلى « قباء » تلك القرية التى استقبلت الرس قبيل وصوله إلى المدينة . فأقام بها هو وصاحبه أبو بكر أربعة أيام وبنى بها أول مسجد فى الإسلام.

وكان — صلى الله عليه وسلم — يحمل الحجر أو الصخرة فيأتى الر من أصحابه ويقول : بأبى أنت وأمى يارسول الله . أعطنى أكفك .

فيقول الرسول : لا . خذ مثله . . .

وكان عبد الله بن رواحة يتغنى وهم يبنون فيقول :

أفلح من يعالج المساجدا

فيردد الرسول قوله : المساجدا . . .

ويقرأ القرآن قائما وقاعدا

فيردد الرسول : وقاعدا . . .

ولا يبيت الليل عنه راقدا

فيردد الرسول : راقدا . . .

حتى تم بناء المسجد الذى نزل فيه قوله تعالى :

« لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَ أَنْ تَقُومَ فِيهِ »(١) .

وكان الرسول — صلى الله عليه وسلم — يأتى مسجد قباء كل سب

---

(١) من الآية ١٨٠ سورة التوبة .

راكباً أو ماشياً ويصلى فيه ركعتين . قال — صلى الله عليه وسلم :
— من تطهر فى بيته ، ثم أتى مسجد قباء فصلى فيه صلاة ، كان له كأجر عمرة .

. . . وأقمنا فى المدينة المنورة أياماً أربعة ، وددنا لو أنها طالت فكانت الشهور والأعوام . كنا نقبل على المسجد النبوى فنكثر فيه من الصلاة ، وإنها لتعدل فى أجرها ألف صلاة فى غيره من المساجد إلا المسجد الحرام ؛ لما تفيضه من مشاعر وما تثيره من جلال الذكرى وروعة المقام . ثم ننفلت من صلواتنا فنعود إلى المدينة نرتاد معالمها الأثرية ، ونسترجع تلك الذكريات الرائعة حين كانت المدينة المنورة محور التاريخ الإسلامى وقطب رحاه ، ومصدر الإشعاع النبوى المنطلق فى كل اتجاه ، والقلب الذى تتدفق شرايينه فى مختلف الأقطار والأمصار ، فتحيى موات الإنسانية وتجدد شباب الحياة . . .

وأنشد صديقى ونحن نأخذ أهبتنا لمغادرة المدينة المنورة قول الشاعر :

ودِّع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعا أيها الرجل؟

نعم ، وما أروع اللحظات التى استقبلنا فيها مقام الرسول نلقى عليه تحية الوداع !

العودة إلى جدة

وعادت بنا السيارة إلى جدة . . .

ومدينة جدة هى الثغر الأول للمملكة العربية السعودية . وأول من اتخذها مرفأ للحجاز هو الخليفة عثمان بن عفان . وكان — رضى الله عنه — قد خرج من المدينة عام ٢٦ هـ فأتى مكة معتمرا . فطلب منه أهل مكة أن ينقل ساحلها القديم من الشعيبية — جنوبى مكة بنحو عشرين كيلو متراً — إلى جدة ، لأن ميناء الشعيبية كثير الشعاب . فذهب إلى جدة ودرس موقعها وشاطئها ، واغتسل من بحرها وقال : إنه مبارك . ومنذ ذلك التاريخ صارت جدة مرفأ مكة والحجاز كله .

وفى عام ٩١٥ هـ أقام السلطان الغورى سوراً حول جدة لحمايتها من غزو الإفرنج الذين بدأوا يتجهون نحو استعمار الشرق . وقد أفاد ذلك فى منع البرتغاليين حينما حاولوا ذلك عام ٩٤٨ هـ للوصول منها إلى مكة ، فأصلتهم قلعتها ناراً حامية ، واضطرتهم إلى الفرار بمراكبهم وكانت عدتها ٨٥ مركباً ، بعد أن تركوا وراءهم جميع ما كان معهم من الذخائر .

وكان بسور جدة خمسة أضلاع وبه تسعة أبواب . وقد زال أثر هذا السور الآن ، وإن بقيت مواضع فى جدة تحمل اسم بعض أبواب السور ، ومنها الموضع المعروف الآن بباب مكة .

وقد امتد العمران فى هذه المدينة إلى الشرق فى طريق مكة ، وإلى الشمال فى طريق المدينة . ونشأت هنالك أحياء جديدة تكاد تؤلف مدائن أخرى على أحدث طراز .

وبالقرب من الميناء تقوم مدينة الحجاج ، لاستقبال الوافدين منهم عند وصولهم إلى جدة وعند إبحارهم منها للعودة إلى بلادهم . وهى تتسع لنحو عشرة آلاف حاج .

وفى جدة مزار يقال إنه قبر أمنا حواء . . .

ويقع هذا القبر بالقرب من المطار ، وتدل آثاره على أن طوله يبلغ نحو ١٠٥ من الأمتار . وكانت تقوم عليه قباب وأبنية . وقد ذكر البتنونى فى رحلته أن الشريف عون أمير مكة حينما أراد هدم تلك القباب ، تعرض له قناصل الدول الأجنبية فى جدة ، باعتبار أن حواء أم البشر جميعاً ، وليست أم المسلمين وحدهم !

مع الرسول فى الطائف

قال صاحبى :

— أما وقد أتممنا شعائر الحج والزيارة . ولدينا فسحة من الوقت قبل مغادرة هذه الأرض الطيبة ؛ فإنى أرى أن نستكمل المواقف التاريخية فى هذه البلاد . وقد اتصلت معرفتنا خلال موسم الحج بالمواقف الهامة فى مكة والمدينة وجدة . ولم تبق إلا مدينة أخرى ذات تاريخ فى الجاهلية والإسلام ، تلك هى مدينة الطائف .

وآثرت أن تكون زيارتنا للطائف بالسيارة لا بالطائرة ، حتى يتاح لنا أن نشاهد كثيراً من معالم الطريق . ونستمتع برحلة قد يكون فيها بعض العناء ، ولكن فيها إلى ذلك كثير من المتعة والفائدة .

وحملتنا السيارة ذات ضحى من جدة إلى مكة . وتناولنا طعام الغداء بفندق مصر . ثم غادرنا مكة بعد العصر متجهين إلى الشرق .

ومررنا فى الطريق بجبل النور حيث يقع على قمته الشاهقة غار حراء ، وبعد ساعة وصلنا إلى قرية « الشرائع » ثم ظلت السيارة تسير بنا بين الرمال والجبال حتى وصلنا إلى واحة جميلة تروى بمياه تنساب من بين الصخور ، هى واحة « الزيما » ويكثر فى هذه الواحة النخيل وشجر الموز .

ثم تابعت السيارة رحلتها فى سهل رملى فسيح . وما إن اختفى قرص الشمس وبدأ الليل ينشر على الأفق الشرقى غلالة رقيقة سوداء . حتى أوقفنا السيارة . وكذلك فعل ركاب السيارات الأخرى . ونزلنا نؤدى صلاة المغرب فى العراء . . .

واستأنفنا الرحلة موغلين فى واد رحيب . ثم أخذ الطريق يعلو قليلا قليلا . وبدأ يظهر أمامنا وجه القمر سافراً بين الجبال . وهو منظر رائع

ب ، فقد خيل إلينا والسيارة تنطلق صعدا أنها تحاول أن تصعد بنا نق القمر فى أفقه الرفيع !

وبعد ساعتين من الغروب وصلنا إلى « السيل الكبير » وهى بلدة فيرة بها بعض المقاهى للاستراحة والتزود من الطعام والشراب . فاستر حنا قليلا ريثما تناولنا الشاى وأدينا صلاة العشاء . ثم مررنا بالسيل الصغير ى قرية أخرى من محاط الراحة والاستقاء .

وانطلقت السيارة تجتاز بنا منطقة جبلية وعرة المسالك . شقت ريق فى كثير من أجزائها بين الجبال . وقبل أن نصل إلى الطائف حو ٣٥ كيلو متراً كان الطريق سهلا مرصوفاً حيث يقع مطار « الحوّية » لى الجنوب الشرقى منه يقع المكان الذى يرجح أنه كان فى الجاهلية قعاً لسوق عكاظ . . .

* * *

والطائف مدينة ترتفع عن سطح البحر بنحو ٥١٠٠ قدم . ولهذا ان جوها من أصح الأجواء فى الصيف . وهى كذلك فى الشتاء . كن شهرتها فى الصيف جعلت منها أهم مصيف فى المملكة العربية سعودية .

وللطائف نصيب كبير فى تاريخ هذه البلاد منذ عهد الجاهلية ؛ ند كانت مقر عبادة أحد الآلهة . وإليها قصد محمد — صلى الله عليه سلم — فى فجر دعوته مستجيراً من أذى قريش ، حيث عرض على ثقيف » دعوته وطلب منهم المنعة والنصر . ولكنهم أجابوه على دعوته لك شر جواب ، وأغروا به سفاءهم يرجمونه بالحجارة ويصيحون وراءه القول المقذع والسباب ، حتى ألجأوه إلى بستان لعتبة وشيبة ابنى ربيعة احتمى به من هذا العدوان الأليم ، حتى رجع عنه السفهاء . . .

وجلس الرسول إلى ظل كرمة وهو محزون مكروب . ثم رفع إلى السماء فى ضراعة وهو يقول :

— اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى الناس . . . يا أرحم الراحمين : أنت رب المستضعفين وأنت ر إلى من تكلنى ؟ إلى بعيد يتجهمنى[١] ، أو إلى عدو ملكته أمرى . إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى ، ولكن عافيتك أوسع لى . بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخ من أن تنزل بى غضبك أو تحل علىّ سخطك . لك العتبى[٢] حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك !

وكان يرقبه وهو على حاله تلك ، صاحبا البستان . . .

فتحركت فى نفسيهما الشفقة عليه ، وأرسلا إليه غلامهما « عداس وكان نصرانياً بقطف من عنب البستان .

ووضع محمد يده فى العنب وهو يقول

— بسم الله الرحمن الرحيم . . .

وفغر عداس فاه دهشة وقال :

— هذا كلام لا يقوله أهل هذه البلاد !

فسأله محمد عن بلده ودينه فقال إنه نصرانى من « نينوى فقال له :

— أمن قرية الرجل الصالح يونس بن متى ؟

فازدادت دهشة عداس وقال :

— وما يدريك ما يونس بن متى ؟

---

(١) يلقانى بوجه عبوس كريه .

(٢) الرضى .

قال : ذاك أخى . . . كان نبياً وأنا نبى .

فأكب عداس على محمد يقبل رأسه ويديه وقدميه . . .

وكان صاحبا البستان ينظران هذا المشهد من بعيد ، وقدأخذ منهما عجب مأخذه . . .

فلما عاد إليهما عداس ، وعلما منه ما حدث قالا له :

— ياعداس ، لا يصرفنك هذا الرجل عن دينك . فهو خير من نه .

وفى هذا المكان الذى لجأ إليه الرسول من ذلك البستان ، يقوم الآن سجد صغير فى بستان يملكه أحد أهل الطائف . . .

* * *

وفى العام العاشر للهجرة ، عاد محمد — صلى الله عليه وسلم — إلى طائف غازياً ، بعد أن دحر قبائل هوازن وثقيف فى موقعة حنين . يذهب البعض إلى أن مكان هذه الموقعة فى المنطقة التى اجتزناها بين شرائع والزيما حيث يقع وادى حنين . وكان ذلك بعد فتح مكة بنحو سبوعين .

وفى هذا الوادى احتشدت القبائل برجالها ونسائها وأبنائها وأموالها ، تقودها مالك بن عوف النصرى ، تريد أن تدخل مع محمد — صلى الله عليه يسلم — فى معركة فاصلة ، إنها الجولة الأخيرة بعد فتح مكة . وإنهم ليرجون أن يحيلوا انتصار محمد إلى هزيمة . وبذلك يكون لهم الفخر على سائر العرب .

وانحاز المحاربون على القمم المشرفة على الوادى . وخرج المسلمون من مكة فى اثنى عشر ألف مقاتل يتقدم كل قبيلة علمها . ويبدو فى صفوفهم بأس النصر ونشوته ، ويذهب الزهو بهذه الكثرة الغلابة في عدتها

وعديدها إلى أن يقول بعضهم : لن نغلب اليوم من قلة !

قال جابر بن عبد الله :

— لما استقبلنا وادى حنين . انحدرنا فى واد من أودية تهامة أجوَ ذى خطوط كأنما تنحدر منه انحداراً . وكان فى عماية[1] الصبح . فخر علينا القوم وكانوا قد كمنوا لنا فى شعاب الوادى ومضايقه . فحملوا ع حملة رجل واحد . وكانوا رماة ، فاستقبلونا بالنبل كأنه جراد منتشر لا يكاد يسقط فى سهم . فكر الناس راجعين لا يلوى أحد على أحد فوجدنا باب المضيق وقدسده رجل من هوازن على جمل له أحمر ، بي راية سوداء فى رأس رمح له طويل أمام هوازن . وهوازن خلفه ؛ إذا أد طعن برمحه ، وإذا فاته الناس رفع رمحه لمن وراءه فاتبعوه . . .

وبدت طلائع الهزيمة فى جيش المسلمين . وشاع فى الناس أن محم قد قتل !

وكان فى الجيش ألفان ممن أسلم من أهل مكة بعد الفتح ، وع رأسهم أبو سفيان . . .

وكشفت هذه المحنة عن كثير من خبايا النفوس وخصائص الرجال .

إن أبا سفيان لم يستطع أن يخفى شماتته بالمسلمين فصاح هاتفاً

— لا تنتهى هزيمتهم دون البحر !

وقال شيبة بن عثمان بن أبى طلحة . وكان أبوه قد قتل فى غزوة أحد

— اليوم أدرك ثأرى من محمد . . .

وكان محمد — صلى الله عليه وسلم — فى مؤخرة الجيش تمر عل القبائل الواحدة بعد الأخرى مهزومة مولية الأدبار لا تلوى على شىء فيصيح بهم الرسول :

— أين أيها الناس أين ؟ !

---

(١) قبل أن يسفر الصباح .

فلا يكاد يسمع له أحد . . .

ويعود الرسول فيهتف قائلا :

— أنا رسول الله . . . أنا محمد بن عبد الله . . . أنا عبد الله ورسوله . . .

ثم يندفع ببغلته يخوض غمرات القتال فى صدر العدو الزاحف ، فيمنعه أبو بكر ، ويمسك أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب بخطام بغلته ويمنعها عن الانطلاق . . .

ووقف العباس بن عبد المطلب على ربوة عالية ينادى بصوته الجهورى :

— يا معشر الأنصار الذين آووا ونصروا . . .

يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة . . .

إن محمداً حى فهلموا . . .

وردد الوادى أصداء هذا النداء ، وتجاوبت مع النداء أصداء تتردد من كل مكان :

— لبيك . . . لبيك !

وبدأت الفلول المنهزمة تتجمع وترتد كالإعصار ، لتواجه هوازن وثقيفا فى جولة رهيبة .

وقال الرسول : الآن حمى الوطيس (١) : إن الله لا يخلف رسوله وعده !

وصدق الله رسوله الوعد الحق ، وانهزمت هوازن وثقيف تاركين وراءهم نساءهم وأبناءهم وأموالهم غنيمة للمسلمين . . .

اثنين وعشرين ألفاً من الإبل ، وأربعين ألف شاة ، وأربعة آلاف أوقية من الفضة ، وستة آلاف أسير !

---

(١) اشتدت الحرب .

« لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللهُ فِى مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئاً ، وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مدْبِرِينَ [٢٥] ثُمَّ أَنْزَلَ اللهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ ، وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا ، وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ [٢٦] ثُمَّ يَتُوبُ اللهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ [٢٧] »[١] .

ومضى المسلمون فى أعقاب هوازن وثقيف ، يطاردون فلولهم الهاربة حتى وصلوا إلى الطائف ، وكانت مدينة منيعة ذات أسوار وحصون ، فلم يكن ثمة سبيل لاقتحامها . وظل جيش المسلمين يحاصرها شهراً كاملا . وأخذوا يقطعون ويحرقون الكروم والبساتين من حول الطائف وعليها حياة أهلها . فلما رأوا ذلك بعثوا إلى الرسول أن يأخذه لنفسه إن شاء ، أو يدعه لله وللرحم . . .

واستمهل محمد رجاله ، ثم نادى فى ثقيف أنه معتق من جاء إليه من الطائف ، ففر إليه نحو عشرين رجلا علم منهم أسرار المقاومة وما لدى القوم من ذخيرة سيطول معها أمد الحصار . فعزم على العودة إلى « الجعرانة » حيث سيقت الغنائم ليقسمها على أفراد جيشه قبل أن ينفد صبرهم .

وانصرف محمد عن الطائف وقد توجه إلى الله بالدعاء ، دعاء القلب الكبير الذى لا تخالطه ذرة من الحقد أو سورة الانتقام ، ولكنه يرجو

---

(١) سورة التوبة .

الخير والهداية حتى لأشد أعدائه لدّاً وخصومة . . .

قال — صلى الله عليه وسلم :

— اللهم اهد ثقيفا وائت بها !

* * *

ووصل الرسول وصحبه إلى « الجعرانة » . وهناك شهد المسلمون وشهد الأسرى منه آيات بينات . . .

إن إحدى السبايا واسمها شيماء من قبيلة بنى سعد ، كانت تدافع الجند حين مرّ بها الرسول وتصيح به :

— يا رسول الله إنى أختك من الرضاعة !

قال : وما علامة ذلك ؟

قالت : عضة عضضتنيها وأنا متوركتك(١) .

وعرف الرسول العلامة ، وكان — صلى الله عليه وسلم — وهو طفل يسترضع فى قبيلة بنى سعد . فغلبه التأثر ونزلت عبراته ، وبسط رداءه فأجلسها عليه ، وخيرها قائلا :

— إن أحببت فعندى محببة مكرمة ، وإن أحببت أن أمتعك(٢) وأرجعك إلى قومك فعلت .

قالت : بل تمتعنى وتردنى إلى قومى .

ففعل . . .

وأقبل وفد من هوازن عليهم شيخهم أبو صرد ، فقال :

— يا رسول الله ، إنما فى الحظائر عماتك وخالاتك وحواضنك(٣) اللائى كن يكفلنك .

---

(١) أضعك وأنت طفل على وركى .

(٢) أعطيك من المال ما تتمتعين به .

(٣) جمع حاضنة وهى المربية .

فسألهم الرسول :

— أبناؤكم ونساؤكم أحب إليكم أم أموالكم ؟

قالوا : يا رسول الله ، ما كنا نعدل بالأحساب شيئاً . اردد علينا نساءنا وأبناءنا فهى أحب إلينا .

فقال الرسول بصوت عال :

— أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم . . .

وما سمع المهاجرون والأنصار هذه الكلمة حتى قالوا :

— وما كان لنا فهو لرسول الله !

وأطلقت هذه الكلمة سراح ستة آلاف أسير . . .

وقال الرسول لوفد هوازن :

— قولوا لمالك . . . إنه إن أتانى مسلماً رددت إليه أهله وماله وأعطيته مئة من الإبل .

وخرج مالك من الطائف مستخفياً حتى أتى الرسول فأسلم بين يديه . وعاد بأهله وماله ، بعد أن قلده الرسول الولاية على من أسلم من هوازن .

* * *

على أن بعض المسلمين هالهم أن يطلق الرسول سراح الأسرى ، وأن يهب من الغنائم من يأتيه مسلماً من العدو . فشغبوا[1] على الرسول وظلوا يتبعونه بالإلحاح أن يقسم بينهم الغنائم ؛ حتى اختطف بعضهم رداءه . .

فغضب الرسول وصاح فيهم :

— ردوا إلىّ ردائى أيها الناس ، فوالله لو أن لكم بعدد شجر تهامة نعماً[2] لقسمته عليكم ثم ما ألفيتمونى بخيلا ولا جباناً ولا كذاباً .

---

(١) هاجوا عليه .

(٢) النعم : الإبل والشاء .

ثم أخذ وبرة من بعير فجعلها بين إصبعيه ، ثم رفعها قائلا :

ـ أيها الناس ، والله ما لى من فيئكم [١] ولا هذه الوبرة إلا الخمس [٢] ، والخمس مردود عليكم » .

وقسم الرسول الغنائم ، وأجزل العطاء من خُمسه إلى الذين كانوا أشد الناس عداوة له ، أعطاهم ذلك فوق أنصبتهم التى نالوها ؛ فقد أعطى أبا سفيان وابنه معاوية وعلم بن الحارث بن كلدة والحارث بن هشام وسهيل بن عمرو وغيرهم ، كلا منهم مئة من الإبل !

وما زال الرسول يعطى ويعطى حتى كادت الغنائم على وفرتها أن تنفد ، والأنصار ينظرون وينتظرون فلا ينالهم منها شىء . . .

وبدأ بعضهم يتهامسون فى مرارة :

ـ لقى والله رسول الله قومه !

وأبلغ سعد بن عبادة ذلك إلى الرسول فقال له : فاجمع لى قومك . . .

واجتمع الأنصار عند الرسول فقال لهم :

ـ يا معشر الأنصار ، ما قالة [٣] بلغتنى عنكم ، وجدة [٤] وجدتموها على فى أنفسكم ؟ ألم آتكم ضُلالاً فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ، وأعداء فألف بين قلوبكم ؟

قالوا فى صوت واحد :

ـ بلى ، الله ورسوله أمن وأفضل .

فقال لهم الرسول :

---

(١) غنائمكم .

(٢) خمس الغنيمة لله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، وأربعة الأخماس للمحاربين .

(٣) كلمة .

(٤) غضبة .

— ألا تجيبونى يا معشر الأنصار؟

قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ولرسوله المن والفضل .

قال — صلى الله عليه وسلم :

— أما والله لو شئتم لقلتم ولصَدقتم ولصُدقتم : أتيتنا مكذباً فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريداً فآويناك ، وعائلا فآسيناك .

ثم قال : أوَجدتم[١] يا معشر الأنصار فى العلالة[٢] من الدنيا تألفتُ بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم ؟

— ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟

— فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شعباً[٣] وسلكت الأنصار شعباً لسلكتُ شعب الأنصار .

وقال الرسول وصوته يتهدج من التأثر :

— اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار!

وفاضت أعين الأنصار بالدموع وهم يقولون :

— رضينا برسول الله قسما وحظا !

عوداً يارب

وقصدت إلى مكة لأزور المسجد الحرام وأطوف بالكعبة طواف الوداع . وكانت لحظات رائعة وأنا أتعلق بأستار الكعبة وأهتف من أعماق روحى :

— عوْداً يا رب !

---

(١) غضبتم .

(٢) بقية الشىء ، فضلة .

(٣) الطريق ، مسيل الماء ، ما انفرج بين جبلين .

وكان دعائى فى الطواف ما رواه ابن عباس :

— اللهم إنى عبدك ، وابن عبدك ، وابن أمتك . حملتنى على ما سخرت لى من خلقك ، وسيرتنى فى بلادك حتى بلغتنى — بنعمتك — إلى بيتك ، وأعنتنى على أداء نسكى . فإن كنت رضيت عنى فازدد عنى رضا ، وإلا فمن الآن فارض عنى قبل أن تنأى عن بيتك دارى . فهذا أوان انصرافى إن أذنت لى ، غير مستبدل بك ولا ببيتك ، ولا راغب عنك ولا عن بيتك .

اللهم فأصحبنى العافية فى بدنى ، والصحة فى جسمى ، والعصمة فى دينى ، وأحسن منقلبى ، وارزقنى طاعتك — ما أبقيتنى ، واجمع لى بين خيرى الدنيا والآخرة . إنك على كل شىء قدير .

* * *

وعدت إلى جدة أتأهب للعودة إلى القاهرة . . .

وحلقت بنا « زمزم » قبيل الفجر فى سماء جدة ، ثم انطلقت تأخذ مجراها نحو الشمال الغربى ، حتى إذا لاح ضوء الفجر على أطراف الأفق البعيد ، وما زالت الأرض من تحتنا تظلل أوديتها سحائب الظلام — أذن بيننا مؤذن أن حى على الصلاة !

موقف آخر من تلك المواقف الرائعة التى تملك العقل والقلب والوجدان ، ونحن نؤدى الصلاة جالسين على مقاعدنا بالطائرة وهى تنطلق بنا فوق مجارى السحاب ، وكأننا نمارس تجربة روحية لا يزيدنا فيها انطلاق الطائرة بعيداً إلا قربا من الكعبة ، واندماجا فى جوها القدسى ، وتعلقا بأستارها السوداء . . .

تجربة نفيد منها حين تغمرنا موجة الحياة الصاخبة ، وتتجاذبنا تياراتها العاتية من جديد . . .

وحين كانت الطائرة تتهادى بنا فى سماء مصر الجديدة وهى تهبط رويداً رويداً ، كان يهتف من أعماقنا صوت تبلله الدموع :

— عوداً يا رب . . .

لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك ، وله الحمد ، وهو على كل شىء قدير . . .

آئبون ، تائبون ، عابدون ، ساجدون ، لربنا حامدون . . .

صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

لا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولله الحمد !

مراجع الكتاب

— القرآن الكريم .
— ابن القيم : زاد المعاد فى هدى خير العباد .
— وزارة الأوقاف : الفقه على المذاهب الأربعة .
— ابن هشام : سيرة النبى .
— الأزرقى : أخبار مكة .
— محمد بن عبد القادر الأنصارى : درر الفرائد المنظمة فى أخبار الحج ومكة المكرمة .
— أحمد السباعى : تاريخ مكة .
— قطب الدين الحنفى : الإعلام بأعلام بيت الله الحرام .
— تقى الدين الفاسى : شفاء الغرام بأخبار المسجد الحرام .
١ — حسين عبد الله باسلامة : تاريخ الكعبة المعظمة .
١ — حسين عبد الله باسلامة : تاريخ عمارة المسجد الحرام .
١ — السمهودى : وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى .
١ — أحمد عبد الحميد العباسى : عمدة الأخبار فى مدينة المختار .
١ — ابن جبير : اعتبار الناسك فى ذكر الآثار الكريمة والمناسك .
١٠ — ابن بطوطة : تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار .
١٠ — عبد الله برخارت : جولات فى بلاد العرب .
١١ — إبراهيم رفعت : مرآة الحرمين .
١٧ — محمد لبيب البتنونى : الرحلة الحجازية .
١٩ — محمد حسين هيكل : فى منزل الوحى .
٢٠ — جمال عبد الناصر : فلسفة الثورة .
٢١ — محمد كامل حته : فى أرض المعجزات .

دار المعارف بمصر

تقدم مجموعة نفيسة من الكتب التى صدرت حديثاً :

- مع الإنسان فى الحرب والسلام — للأستاذ فتحى رضوان
  ٦١٤ صفحة . قطع كبير — الثمن ١٢٠ ق
- ألبير كامى ، محاولة لدراسة فكره الفلسفى — للدكتور عبد الغفار مكاو
  ٢٠٠ صفحة . قطع كبير — الثمن ٤٥ ق
- المتنبى وشوقى — للأستاذ عباس حسن
  ٣٦٨ صفحة . قطع كبير — الثمن ٨٠ ق
- صخرة النجاة (مجموعة شبابنا)
  ١٤٤ صفحة . قطع صغير — الثمن ٢٠ ق
- ماروسيا (مجموعة شبابنا)
  ٢٠٨ صفحة . قطع صغير — الثمن ٢٥ ق
- المغرب (مجموعة شعوب العالم) — للأستاذين حسن محمد جو وصلاح العرب عبد الجواد
  ١٥٠ صفحة . قطع صغير — الثمن ٢٠ ق
- إثيوبيا (مجموعة شعوب العالم) — للأستاذ حسن محمد جو
  ١٣٦ صفحة . قطع صغير — الثمن ٢٠ ق
- تأملات فى الفلسفة والأدب والسياسة والاجتماع (طبعة جديدة) — للأستاذ أحمد لطف السيد
  ١٤٠ صفحة . قطع متوسط — الثمن ٣٥ ق

دار المعارف بمصر

نقدم مجموعة نفيسة من الكتب التى صدرت حديثاً :

ون لوك – (مجموعة نوابغ الفكر الغربى) – للأستاذ عزمى إسلام
٢٥ صفحة . قطع متوسط الثمن ٤٠ قرشاً

صة الفيزياء – تأليف جورج جاموف ، ترجمة الدكتور محمد جلال الدين الفندى
٤٤ صفحة . قطع كبير الثمن ١٠٠ قرش

طور الفكر السياسى – لجورج سباين ، ترجمة الأستاذ حسن جلال العروسى
لكتاب الأول ٢٢٤ صفحة . قطع كبير (طبعة ثانية) الثمن ٤٥ قرشاً
لكتاب الثانى ٤٥٦ صفحة . قطع كبير الثمن ٥٥ قرشاً

الأنهار العظيمة فى العالم (مجموعة كل شىء عن) – لآن تيرى هوايت ، ترجمة العميد ا . ح . محمد عبد الفتاح إبراهيم
١٣٦ صفحة . قطع متوسط الثمن ٣٠ قرشاً

البحر – (مجموعة كل شىء عن) – لفردياندس . لين ، ترجمة الدكتور محمود محمد رمضان
١٢٦ صفحة . قطع متوسط الثمن ٣٠ قرشاً

البعثات العلمية الشهيرة (مجموعة كل شىء عن) – لريموند هولدن ترجمة الدكتور سيد رمضان هدارة
١٢٤ صفحة . قطع متوسط الثمن ٣٠ قرشاً

هارب من الأيام (طبعة جديدة) – للأستاذ ثروت أباظة
٢٦٠ صفحة . قطع متوسط الثمن ٤٠ قرشاً

لن يجوع العالم – تأليف و . ه . كلفر ، ترجمة الدكتور مصطفى عبد العزيز
١٧٢ صفحة . قطع متوسط الثمن ٣٥ قرشاً

تم طبع هذا الكتاب بالقاهرة
على مطابع دار المعارف بمصر
سنة ١٩٦٥

قلعة الدواء العربي

لتوفير الشفاء لكل عربي

شركة تنمية الصناعات الكيماوية "سيد"

احدى شركات المؤسسة المصرية العامة للأدوية

تنتج ٣٤ نوعاً من المجموعات الدوائية العالمية

- رأس المال ١,٠٠٠,٠٠٠ جنيه
- قيمة المبيعات ٢,٤٠٠,٠٠٠ جنيه
- ميزانية الاعلانات ٥٥,٠٠٠ جنيه
- المستحضرات المنتجة ١٣٤
- قيمة الاشتراك ٣,٠٠٠,٠٠٠ جنيه
- عدد العاملين ١٥٠٠ فنى
- ميزانية الخدمات ٣٥,٠٠٠ جنيه
- المجموعات الدوائية ٣٤

وتصدر الشركة الفائض من الاستهلاك المحلى الى :

الدول العربية الشقيقة

والى الدول الافريقية المتحررة الصديقة

للشركة وكلاء فى جميع البلاد العربية ...

الادارة والمصانع وقسم البيع : شارع الأهرام - بالطالبية - جيزة تليفون ٨٩٤٩٦٩

ادارة العلاقات العامة وقسم التصدير : ٢ شارع شريف عمارة اللوار تليفون ٧٤٠١٥ / ٥٠٥٤٥